DATE DUE

J. Lib.

1 OCT 1986

J. Lib.

16 JUL 1987

370.9
H961tA
عبد الله حسين

التعليم العربى والجامعى

Arabic & Universitary Learning

BY

Abdalla Hussein

.....

يشتمل على كتابين معا

١ - الكتاب الأول : عن نشأة التعليم فى البلاد العربية والاسلامية ، ونشأة النظام الجامعى العربى والأوروبى ، وتطورهما

و ٢ الكتاب الثانى : عن الجامع الأزهر

Cat. 7 Dec. 53

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف

مطبعة التوفيق بكفر حوش الدرفاوى بمصر

مكتبة العرب
لصاحبها
الفتح يوسف توما البستانى
شارع الفجالة

تمهيـــد

بقلم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر المغفور له الشيخ
محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الازهر السابق

فقيد الأزهر والاسلام المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغى

إلى الأستاذ عبدالله :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد: فأقول إنني قد اطلعت على الكثير مما عقدت في سلسلة الدراسات العربية والاسلامية فأعجبني ما قرأت، وحمدت لك هذا النهج القويم الذي ولجت في بعث تراث العرب وتذكير الحاضرين بمناقب السابقين، وإحياء الفكرة الاسلامية في النفوس، بعد أن ران عليها صدأ الغفلة والنسيان. ولقد عنى الاسلام بالاخوة الانسانية. ونبه القرآن الكريم إلى موجبات التعاون والتعارف والتناصر والمبعدة عن المناكر والاختلاف والتخاذل. ووضع للتفاضل بين الناس معياراً لم يعرفوه من قبل، وهو تقوى الله. وفي القرآن الكريم «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا. ان أكرمكم عند الله أتقاكم».

وليس من شك فى أن اطلاعكم أبناء العروبة والمسلمين جميعا ومحبى العرب والاسلام بل محبى الحق على أمثال هذه الدراسات ، جدير بأن يقابل بالثناء والتقدير ، وبخاصة حين يكون ثمرة بحث الكتاب القادرين والمؤرخين المحققين والدراسين الباحثين .

ولقد قرأت لك منذ بضع سنوات « كتاب السودان من التاريخ القديم : إلى رحلة البعثة المصرية » فقدرت المجهود الذى بذلته ، والغاية التى رجوتها .

ثم رأيتك فى هذين العامين ، تمضى فى تسجيل ثمار مطالعاتك ورحلاتك فى خلال ربع القرن الماضى ، لكى تساهم فى التأليف مع من ساهموا قبلك ومعك . بعد ما أسلفت من خير وبذلت من جهد فى خدمة الدين والوطن .

فعلى بركة الله وفي رعايته سبحانه، إمض في هذه البحوث والدراسات بمنهج الصدر الأول للنقد القويم؛ مشكورا مأجورا. فإن أخطأت فلك أجر واحد، وإن أصبت فلك أجران. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الإسكندرية يوم الخميس أول رمضان ١٣٦٤

٩ أغسطس ١٩٤٥م

محمد مصطفى المراغي

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر
الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الازهر
الجديد الذى عين فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤٥ شيخا للازهر

فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبدالرازق

، تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك الفاروق فقلدنى مشيخة الجامع الأزهر الشريف وحملنى بذلك أمانة عظمى ، أسأل الله أن يعيننى على الوفاء بحقها ، والجامع الأزهر الشريف هو قبل كل شيء بيت الله فهو خالص لله وحده ، وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » . ثم هو من أعظم مفاخر مصر فى تاريخها كله ، فلكل مصرى نصيب من مجده وعلى كل مصرى حق الاهتمام بشأنه والعمل على صلاحه ونهضته .

والأزهر الشريف معهد الدراسة الاسلامية الأكبر فهو قبلة المسلمين فى ثقافتهم الدينية وما يتصل بحياتهم الروحية . فلكل مسلم قبس من ضيائه وحظ من ظل لوائه

ثم إن الأزهر حصن العربية ، صانها من عوادى الدهر يوم كاد الجهل يقصها من أطرافها . ومنه أشرقت نهضتها المرجوة . فللأزهر فضل على العروبة . عرفت العروبة جميله بما فى طبعها من سجية الوفاء . فانى لله جل جلاله أتوجه

مخلصا له دينى فى خدمة بيت الله ، والى كل مسلم وكل مصرى وكل عربى يهدى تحية طيبة الى من ينهض اليوم بأمر معهدهم الجليل معتمدا أن يسير به قدما فى سبيل الرقى والاصلاح ، شاكرا بأنه بذلك يؤدى واجب الله ويخدم دينه ووطنه وقومه ، وأسأل الله أولا وآخرا أن يلهمنى الرشد وأن يعيننى على تحقيق الأغراض السامية التى أولانى صاحب الجلالة ثقته الغالية فى سبيل تحقيقها خدمة للاسلام وخدمة للعروبة ولمصر الوطن العزيز .

ويا أبناء الأزهر الشريف حيا الله وجوهكم فقد كرمتم مقدمى تكريما بالغ الأثر فى نفسى وأشهد ما لأحد من أبناء الأزهر عندى الا الود صادقا ، وحب الخير خالصا . وسأدفعكم بكلتا يدى فى سبيل الله ، سبيل الكمال الدينى والدنيوى حتى تعودوا باذن الله أئمة الخير والحكمة فى هذا العالم المحتاج الى الحكمة والخير ، وحتى يعود الأزهر فى العالم منارة علم ودين وخلق وحب وسلام وحرية .

وما يكون لى إذ أتولى مشيخة الازهر الشريف بعد المغفور له الأستاذ الاكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى الا أن أطلب اليكم جميعا ان تقرؤوا معى فاتحة الكتاب لنهدى ثوابها الى روحه وأرواح شيوخنا السابقين رحمهم الله أجمعين . وعلى الله قصد السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٢٣ محرم سنة ١٣٦٥ — ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٤٥

مصطفى عبد الرازق

كلمة المؤلف

منذ أن نهضنا فى عام ١٩٤٥ ، باخراج « سلسلة الدراسات العربية والاسلامية » مضينا فى طبع المؤلفات العديدة التى تنتظم هذه السلسلة عقدها . وكان من بواعث الاغتباط ، أن رأينا قراء مؤلفاتنا فى مصر والشرق العربى والأجانب الذين يعرفون العربية أو قرأوا ما نقل من فصول مؤلفاتنا الى اللغات الأوربية - يقدرون هذا المجهود ، ويستحثوننا أن نتابعه وأن نستزيد منه ، خاصة فى هذا العهد ، الذى تنبض فيه العروبة بالحياة الحرة والعلمية

وهذا كتابنا الجديد من هذه السلسلة « التعليم العربى والجامعى » نقدمه فى كتابين مجتمعين . أولهما : عن نشأة التعليم فى البلاد العربية والاسلامية ، ونشأة النظام الجامعى ونظام المدارس الاسلامية والأوروبية فى البلاد العربية

والأوروبية . أما ثانيهما فيتحدث عن الجامع الأزهر ، تلك الجامعة العربية الاسلامية القديمة المتجددة التي كان ولا يزال لها الشأن الأول في الأحداث العلمية والاجتماعية والدينية في الشرق العربي . غير أننا نزولا على ضيق المقام قد أوجزنا الحديث عن الجامع الأزهر ، راجين أن نعقد له كتابا مستقلا أوسع مدى

وحسبنا أن نقدم اليوم كتاب « التعليم العربي والجامعي » ونحن على ثقة من رفق قرائنا بنا إذا رأوا قصوراً أو تقصيراً

والله تعالى أسأل أن يوفقنا إلى إتمام المؤلفات العديدة الأخرى التالية في هذه السلسلة

عبد الله حسين

أخطاء مطبعية

وقعت أخطاء مطبعية ، يستطيع القارىء أن يدركها بلا حاجة الى تصحيف

ترجمـــة حياة المؤلف عبد الله حسين ومؤلفاته

ولد المؤلف فى القاهرة ونشأ فى دار المؤيد رقم ١٥٨ شارع محمد على وهو خريج مدرسة فيكتوريا ومدرسة الجمعية الخيرية الأسلامية والشيخ صالح أبى حديد والأعدادية ، وكان أول طلبة البكالوريا وأول المدرسة كلها ، وكان أحد شبان ثلاثة قابلوا سعد زغلول وأصحابه فى خلال الحرب العظمى قبيل عقد الهدنة وقبل أن تخطر بالبال فكرة تأليف الوفد المصرى . وقد توثقت صلات المؤلف بالزعيم سعد وتبودلت بينهما رسائل وأحاديث هى موضوع كتاب خاص. ولقد أتيح للمؤلف مقابلة أعاظم الرجال فى أوربا كالبابا ولبران ولويد جورج ومكدونالد وتشمبرلين وديجول وإيدن وموسولينى وبريان وبلوم ، كما درس العمل فى صحف أوربا التى نشرت رسائله واحاديثه وقد عاصر فى صباه الحركة الوطنية والفكرية الأولى التى كان من أعلامها محمد عبده وعلى يوسف وقاسم أمين ومصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش ، وعاصر فى شبابه الحركة الوطنية الثانية بزعامة سعد زغلول والمؤلف - إلى هذا -

خريج مدرسة الحقوق الملكية (كلية الحقوق فى جامعة فؤاد الاول) وقسم الدكتوراه بمدرسة الحقوق الفرنسية «شعبة العلوم السياسية والاقتصادية» وقسم العلوم الجنائية بالجامعة المصرية القديمة وحاصل على دبلوم معهد الدراسة الايطالية ودبلوم المعهد الالمانى وله رسائل واحاديث فى جرائد التيمس والمانشيستر جارديان والديلى ميل والاجبشيان ميل والجازيت دى لوزان والبوبولو دى روما والجورنالى ديطاليا ولومانيتيه و... وعضو اللجنة الاستشارية العليا للتعاون التى وضعت قانون التعاون فى سنة ١٩٢٧ وأحد مؤسسى جمعية نهضة القرى ومؤسس جمعية الشبيبة المصرية وجمعية الدراسات السودانية وجمعية الدراسات الأفريقية ولجنة الدراسات العربية والاسلامية واتحاد ضاحية الاهرام وعضو البعثة المصرية للسودان وعضو لجنة جوبا وعضو الاتحاد العربى والأستاذ بقسم الصحافة بالجامعة الامريكيه الى سنة ١٩٤٢. وقد أنشأ مجلة المفيد وهو فى الدراسة الابتدائية والجريدة القضائية فى سنة ١٩٣٠، ومجلة الادارة والبوليس القضائى فى سنة ١٩٣١ ومحرر بالاهرام

وله باب التأليف كتب نفد أكثرها سيعاد طبعها منقحة

ومن هذه : ـ المرأة الحديثة وكيف نسوسها . التعاون الزراعى فى مصر . السودان من التاريخ القديم إلى الثورة المهدية والسودان منذ استعادته إلى تنظيم إدارته والسودان إلى رحلة البعثة المصرية فى ١٩٣٥ والمسألة الحبشية وشرح مبادىء القانون التجارى ومجموعات الجريدة القضائية ومجموعات البوليس القضائى تاريخ ماقبل التاريخ والملك عبدالعزيز آل سعود والمملكة العربية السعودية وفاتحة الدراسات العربية والاسلامية والخديو عباس حلمى والازهر الجديد واحمد ماهر والجيل الوطنى الجديد والتعليم العربى والجامعى . وميلاد الحضارة والمسألة اليهودية . والمسألة الهندية وهذا حديث لى . أسس الحياة الدولية وحظ مصر الفرعونية القديمة والحديثة والعرب منها . أشهر الحضارات القديمة وغير هذه المؤلفات

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
تمهيد بقلم المغفور له الشيخ محمد مصطفى المراغى	٥ - ٢
كلمة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبدالرازق	٩ - ٦
كلمة المؤلف وترجمته	١٥ - ١٠
الفهرس	١٦ - ١٥
التعليم الجامعى	٢٣ - ١٧

الحياة الاجتماعية والاتحادات جامعية ٢٣ - ٢٨
الجامعة مكان للبحث العلمى ٢٩ - ٣٢
جامعات بريطانيا ٣٣ - ٥٤
التعليم عند العرب وفى الاسلام ٥٥ - ٧٧
مهمة التعليم الجامعى . فى المانيا . التعليم وعلم النفس ٧٨ - ١٠٨
التعليم فى بريطانيا
منشأ المدرسة الاسلامية . أثر البيئة الاسلامية ١٠٩ - ١٢٤
الانفاق على التعليم . اهداف التعليم العربى والبريطانى
المعلمون ، الحرية فى التعليم ١٢٥ - ١٢٩
التدوين وأثره فى نهضة المدرسة الإسلامية ١٢٩ - ١٣١
الكتب فى عصر الخلفاء ١٣١ - ١٣٧
من الحافظة إلى التقييد ١٣٧-١٤٥
تدوين الحديث والقرآن ١٤٥ - ١٦٠
مدارس الدولة العباسية ١٦١ - ١٧٠
مراحل التعليم العربى الإسلامى ومناهجه التعليم فى ١٧١-١٨١
عهد المتنصر بالله . فى المدارس الأندلسية
التعليم الجامعى الفنى والشعبى ١٨٤ - ٢٠٠
الجامعة والمدارس العامة
التعليم الشعبى والجامعات الشعبية ٢٠١ - ٢٠٩
أغراض الجامعة الشعبية خطة الدراسة أوقات الدراسة
الكتاب الثانى - الجامع الأزهر ٢١١

التعليم الجامعى

« الجامعة » هى الترجمة العربية للكلمة الأوربية المشتقة من اللفظ اللاتينى Universitas — ومعناه الأصلى أى غير الاصطلاحى : الجماعة أو جماعة ما أو هيئة من الهيئات — ومن أجل هذا كان يضاف الى هذا اللفظ كلمة أخرى لكى يكون معناه الجماعة أو الهيئة الدراسية أو التعليمية فيقال : Universitas magistrorum et scholariam

أما اطلاق هذا اللفظ وحده دون أى نعت آخر له — فقد بدأ منذ آخر القرن الرابع عشر الميلادى ، غير أن معناه كان مقصوراً على الدلالة على الجماعة من الأساتذة والطلاب تعترف بها السلطة المدنية أو السلطة الدينية . أما مكان التعليم نفسه فكان يطلق عليه الاسم اللاتينى Studium generale ومعناها : « مركز تعليم للكافة »

ويبدو ان انشاء هذه الهيئات التعليمية كان سائراً فى أوربا مع إنشاء نقابات الحرف وكانت مراكز التعليم نقابة من النقابات منذ القرن الثالث عشر ، وكانت فى الأغلب ، نقابة أجنبية ، يحتاج

أعضاؤها الى حماية هيئتهم ومصالحهم ، لأنهم كانوا من الأجانب والغرباء ، وكانوا فى حاجة الى أن تعترف بأهليتهم للتعليم والتعلم السلطة المدنية أى الملك أو الامبراطور أو الحاكم أو سلطة دينية هى الكنيسة حين يكون لها مدرسة وحين ترخص بأن تكون هناك دراسة الى جوار الكنيسة ، وترخص لهم بالتدريس ومنح الدرجات العلمية

أما الكلية فكانت تطلق على الدار التى يقيم فيها الطلبة . وهناك تفصيلات عديدة توضح مراحل تطور الحياة الجامعية من بيئة صغيرة ودار صغيرة وبحث محدود فى المنطق واللاهوت وخلف بين الأساتذة وبينهم وبين الطلاب ، واضطهادات من الكنيسة والحكومات للافكار الحرة والمفكرين ، الى دور كبيرة ومكتبات ومدرجات ومعامل وحدائق ورحلات واكتشافات واختراعات وسياسات وحياة هى أحياناً الصورة الصغرى لحياة أمة متعلمة راقية

قلنا إن معنى الجامعة كان فى أول الأمر اتحادا أو جمعية منظمة لها سلطات معينة . وما زال هذا المعنى عالقاً بأذهاننا حين نقول أن السمة التى تميز الجامعة هى قدرتها على منح الدرجات العلمية . ففى انجلترا تستطيع أن تقول أن برمنجهام ومانشستر ولندن بها جامعات ، أما نتنجهام وهل فيها كليات جامعة ، وذلك لأن هاتين الأخيرتين

لا تستطيعان أن تمنحا درجات علمية ، وانما يحصل عليها الطلبة من جامعة لندن . هذه مسألة قانونية ولكنها تنطوى على مسألة هامة . الجامعة جماعة من المعلمين والعلماء اعترف لهم بسلطة مستقلة لهم أن يضعوا برامج التعليم ، والمستوى المطلوب -- وهو أهم من البرنامج . هم الذين يضعون الامتحانات ويصدرون نتيجتها وهم الذين يحددون ما يطلب من الطلبة الذين يرونهم — بعد نجاحهم — ملائمين لتعليم موادهم كأساتذة أو دكاترة

هذه إذاً هى سمة الجامعة : كرامتها وسلطتها . لها فى ميدانها سيادة لا تنازع . ولكن من أين تستمد الجامعة هذه السلطة ؟ وأى مستوى يجب أن يبلغه المعلمون والعلماء كى يظفروا بهذه السلطة ؟ الجواب على ذلك أنه ينبغى لهم أن يكونوا من المعلمين والعلماء الذين يوسعون آفاق المعرفة . لا يكفى أن يكونوا معلمين تتحدر الى الطلبة عن طريقهم المعارف يستمدونها من غيرهم ، ومن مؤلفات وبحوث للآخرين . يجب أن تتسع المعارف على أيديهم هم أنفسهم ، وأن يكشفوا عن أشياء لم تكن معروفة من قبل وأن يلقوا ضوءا جديدا على مجاهل ظلت مظلمة أحقاباً طويلة . يجب أن يكون لكل أستاذ بالجامعة علم أو فرع من فروع العلم يستطيع — وهو واثق — أن يقول فيه

« لا يهمنى ما جاء عنه فى الكتب ، ولا يهمنى ما يقول فيه الثقاة ، فقد تبين لى — ولا أقول فانى أظن — أنهم مخطئون فى هذا الباب » ويستطيع أن يقول لطلبته — وهو على يقين — « هذه العبارة فى ذلك الكتاب سليمة ولا غبار عليها — فقد خبرتها بنفسى »

وعند الأستاذ محمود محمود أن الجامعة تتألف من جماعة من المعلمين و علماء ذوى نفوذ علمى ، لأنهم هم أنفسهم يضيفون الجديد الى كنوز المعرفة . ويتبع ذلك أن يكون المعلمون الجامعيون أحرارا فى تحديد ما يراد معرفته ، وفى تعليم ما يعتقدون أنه الحق وما يبدو لهم أنه الحق . وليس لأية سلطة أخرى ، مهما يكن نفوذها فى الميادين الأخرى ، أن تعين لهم ما يعملون ، وأن تحدد لهم ما يبدون وما يخفون . فهى لهذا جديرة بأن تصبح عضوا فى مجموعة الجامعات العالمية الكبرى . فهذه المجموعة على اختلاف الأمم والأجناس واللغات — تؤلف جماعة واحدة يتبادل أعضاؤها نتائج بحوثهم ومكتشفاتهم وكلهم مشتغل بالبحث وبزيادة معارف الإنسان

وعلى الجامعة فى الوقت عينه واجب آخر نحو الأمة التى تنشأ فيها ، وذلك أن تكشف عن المعارف المختلفة التى تحتاج اليها هذه الأمة دون غيرها من الأمم . ومن الخطأ أن يظن أن الجامعات جميعاً

عليها أن تعلم أو تبحث فى جملة الموضوعات نفسها . صحيح إن هناك من الموضوعات والدراسات مايصح جعله أساساً للعلم الحديث ، ولازماً لفهم الحياة وأغراضها . وهذه الموضوعات وهذه الدراسات يجب أن تكون جزءاً من برنامج أية جامعة من الجامعات . ولكن هذا اشبه ما يكون بالهيكل الذى يجب ان يمتلىء فراغه بالمعارف والبحوث التى تهم أمة معينة دون غيرها من الأمم . ولذا فالجامعات تكون من مجموعها جماعة دولية أولا . غير أن كلا منها على حدة يخدم المجتمع الذى ينشأ فيه ويعنى بحاجاته الخاصة عن طريق البحث المبتكر

وإلى أن الجامعة ليست مجرد جماعة من العلماء الباحثين فانها هى كذلك جماعة من المعلمين ، فالعلم ليس كنوزاً تدخر . إنما هى كنوز تنشر . ولا تنشر إلا بالتعليم . ومن واجب المعلم أن يعلم طلبته شيئاً أكثر مما يتصل بمهنته . على الجامعة ان تؤهل الطلبة تأهيلا فنيا ، وعليها بعد ذلك ان تمدهم بفلسفة او نظرة خاصة إلى الحياة ، وأن تدربهم على فن الاجتماع . أما الغرض الأول فقد تحدثنا عنه من قبل وقلنا إن الطلبة يتلقون العلم على علماء باحثين . أما الغرض الثانى — فلسفة الحياة — فيحصلون عليه عن طريقين ، الأول أن يتعلموا الى جانب علومهم المهنية أو قبلها موضوعات عامة

كالأدب أو التاريخ أو الفلسفة ، والثانى بمساعدتهم غيرهم ممن يدرسون مواد غير موادهم . حتى يكون بالجامعة تبادل فى الآراء بين الطلاب يوسع آفاقهم الفكرية فى الفروع المختلفة ، بين عالم الطبيعة مثلا والفيلسوف أو طالب الأدب ، بين الاخصائى وطالب الفلسفة أو الأديب ، وبين طالب العلوم النظرية والعلوم التطبيقية وغير ذلك

أما الغرض الثالث فيظفر به الطلبة بسكناهم معا فى منازل خاصة باقامتهم (الداخلية) ، وبمساهمتهم فى جمعيات الطلبة ، وهى من أهم المميزات للجامعة الحديثة : كجمعية المناظرات وجمعية التمثيل والجمعيات السياسية والدينية والفنية والعلمية والتاريخية أو بمساهمتهم فى اتحاد الطلبة الذى يمكن الطلبة من حكم أنفسهم بأنفسهم ، وهو الاتحاد الذى يمثل أمام إدارة الجامعة وجهة نظر الطلبة . واذا كان من واجب المعلم الجامعى أن يعلو حتى يكون من الباحثين ، فكذلك الطالب الجامعى ينبغى أن تبلغ سنه حداً يمكنه من أن يحكم نفسه بنفسه

وللجامعة مهمة أخرى إزاء المجتمع الذى تقوم فيه . ويعاونها على أداء هذه المهمة أن تبعث بخريجيها المشبعين بروحها الى المدارس الثانوية والابتدائية المجاورة ، يعلمون فيها ويبثون أحدث النظم

والآراء . ويجب كذلك أن ينتقد الشعب أن بالجامعة رجالا لا ينتمون الى حزب معين ، ولا ينزلون الى معمعان السياسة . رجالا لهم فى الحياة نظرات واسعة موضوعية إنسانية . وتستطيع الجامعة أن تكون مصدر نور وعرفان لا الى طلبتها فحسب ، بل كذلك الى أبناء المنطقة المجاورة .

على أساتذة الجامعة — فوق ذلك — أن يؤلفوا الكتب الخالدة التى تبقى على وجه الزمان ، وتؤثر فى مجرى التاريخ ، وألا يكون رائدهم فى ذلك كسب المال ، أو التظاهر بالثقافة ، أو النفوذ الاجتماعى ، وإنما متعلة الحق وإظهاره

الحياة الاجتماعية والاتحادات الجامعية

فاول ما يشعر الطالب أنه عضو فى أسرة الجامعة أن يرتدى زيها الخاص ثم يقوى عنده هذا الشعور بعد ذلك إقامته فى الجامعة ، يأكل ويشام ويعمل ويلعب مع زملائه . ثم تلك الدعوات التى يوجهها اليه الأساتذة لتناول الشاى أو للاحتفال بمناسبة ما فى دورهم الخاصة ، وتلك الاجتماعات المسائية مع إخوانه ، التى يحتك فيها عقله بعقول الآخرين فيزداد حدة وضياء . ويجب أن تكون لكل طالب

جامعى حجرته الخاصة يستذكر فيها دروسه ويدعو فيها اخوانه لتناول الشاى أو السمر . كما يجب أن تخصص حجرات خاصة للصحف والمجلات ، وللموسيقى ، والمكتبة ، والألعاب ، وأن تلحق بها أماكن للعبادة ، وأن تحاط بالحدائق ، وتمد بعدد كاف من ميادين الألعاب . ومن واجب الأساتذة أن يشتركوا مع الطلبة فى المساء فى وجبة العشاء ، وأن يجلسوا معهم فترة بعد العشاء يتسامرون ، يجب أن تحمى الجامعة فن الحديث الذى طغت عليه الآلة فأضعفته بما بثت فى الناس من روح العجلة

ولما كانت الجامعة ترمى الى تكوين الشخصية من جميع نواحيها وجب أن يكون بها عدد من المربين يكفى للاشراف على الطلبة . وقد يكون هؤلاء المربون من المختصين فى المواد أو غير المختصين . لأن العلاقة الشخصية بين المربى والمربى من أهم مكونات الشخصية

أما اتحاد الطلبة فأن فى جامعة ردنج بانجلترا مثلا ، ينتمى طلبة الجامعة جميعا الى اتحاد الطلبة ، ولكنهم لا يعقدون اجتماعاً أكثر من مرتين أو ثلاث فى العام ، وذلك حين تعرض للطلبة مشكلة عويصة . وينتخب ثلاثين طالبا ليكونوا أعضاء « مجلس الطلبة التمثيلى » . ويمثل هذا آراء الطلبة تمثيلا حقا ويجتمع أعضاء هذا

المجلس باطراد مرة كل ثلاثة أسابيع ، ويناقش كل مشكلة تجد ويراقب أعمال الجمعيات الفرعية المختلفة ، وكما أن برلمان الأمة لابد له من وزراء ومصالح مختصة يعالجون شئون الحياة العامة ، كذلك مجلس الطلبة — على نطاق ضيق بطبيعة الحال — له ثلاث جمعيات دائمة تختص كل منها بناحية معينة من حياة الطلبة ، مثل المساكن ، والالعاب ، والملاهى ، والصحف والمجلات ، والخدمة الاجتماعية ، والجمعيات العلمية . وما اليها

والاتحاد يشمل طلبة الجامعة جميعاً ، وعلى رأسهم ضباط الاتحاد عليهم رئيس يعاونه وكيل ، وله أمين للصندوق ، وسكرتير أو اثنان وكلهم من كبار الطلبة . وهم يصدرون قراراتهم المالية والتنفيذية كلما اقتضت الضرورة ذلك ، ويمثلون طلبة الجامعة جميعا ، أمام الجامعة فى مسألة التأديب والنظام ، وأمام الحكومة المحلية فى كل ما يختص بحركات الشباب السياسية والدولية بمثابه حكومة الطلبة للطلبة من أجل الطلبة . ويجد الطلبة فى عضوية الجمعيات الجامعية مجالا للتدريب على التنظيم والابتكار واحترام اولى الامر والنفوذ

الجامعة والأمة

تختلف الجامعة الانكليزية التى هى قليلة الصلة بالجمهور ، عن الجامعة الأمريكية . حتى إن رؤساءها يعدون من الشخصيات القومية البارزة . وإذا تحدث الامريكى فى بوستن مثلا عن « الرئيس » فهو يقصد رئيس جامعة هارفارد ولا يقصد رئيس الجمهورية . ولعل أكثر الجامعات الانجليزية صلة بالجمهور اكسفورد وكامبردج . وأهم ما يشغل الجمهور منهما سباق الزوارق الذى يجرى بينهما كل عام على متن التيمز. الأساتذة الانجليز يحسبون الاتصال بالجمهور ضربا من ضروب الاعلان عن النفس ، وهم لا يحبون ذلك . ثم إن عملهم - فوق ذلك - ليس مما يثير اهتمام الجمهور . واجبهم أن يعلموا الطلبة وأن يبحثوا . ولا يتطلب منهم ذلك العجلة أو الصلة بالجمهور . فهم يعملون فى حجرات الدرس ، والمكتبات والمعامل ، والمستشفيات وحقول التجارب . وثمة ما يحمل على التباعد بين الجامعة والجمهور فى انجلترا أن الجامعة لا تخضع للحكومة ، رغم أنها تتقاضى منها منحة سنوية . ولذا فالجامعة الانجليزية بعيدة عن أعين الجمهور . وليس معنى ذلك أنها عديمة الصلة به . بل إن مجالس الأدارة بها تضم الى جانب المعلمين

رجالا ونساء ممن لهم خبرة بالنواحى المختلفة من نواحى الشعب . ثم إن المعلمين والطلبة أنفسهم من طبقات مختلفة من الأمة ، ويستعد الطلبة لخدمات متنوعة ولمهن مختلفة . وكل مهنة فى انجلترا لها نقابة أو جمعية على صلة بالجامعات تقدم لها الاقتراحات ، وكثير من الجامعات يدعو أعضاء هذه النقابات لحضور مؤتمراتهم كى تفيد من آرائهم ونقدهم . كما أن النقابات تستفيد من هذه المؤتمرات لأنها تدرس المشكلات فى ضوء التجارب التعليمية والعلمية.

وتتصل الجامعة الانجليزية — من ناحية أخرى — بالجمهور عن طريق تعليم الكبار ، ممن يعملون نهارهم فى كسب قوتهم ، ويتعلمون مساءهم بالجامعة يستمعون إلى أساتذتهـا يحاضرونهم ، ويناقشونهم فى نواحى العلم المختلفة . وهذه الفئة من الناس لا تفكر فى التحضير إلى شهادة معينة وانما جل رغبتهما أن تنهض بمستواها العقلى والعلمى .

والجامعة مدينة لكل من أعانها بالمال ، وعليها أن تحتفظ باسمه وأن تتابع الدراسة التى من أجلها تبرع المتبرع بملكه . وعلى الجامعة بعد ذلك دين للسلطة المحلية — أى للمدينة أو المقاطعة التى تقوم فيها فيكون لأبنائها الأسبقية فى القبول .

واجب أن تكون الجامعة يقظى لجميع المشكلات القومية ، ترى فيها رأيها ، ويتطلع اليها الجمهور عندما يتفرق الرأى ويحزب الأمر (١).

وعلى الجامعة ان تعد دراسة قصيرة فى موضوعات مختلفة لخريجيها ولمعلمى المدارس التى تستمد منها طلبتها ولعمال الذين على صلة بها . ان هذه الدراسات تجدد القوى العقلية ونواحى التفكير . وتستطيع الجامعة كذلك ان تصرح للجمهور أن يرتاد مكتبتها للقراءة واستعارة الكتب . وأرى أن تكون للجامعة صحيفة أو مجلة يقرأها الجمهور ، وان يصدر استاذها كتبا شعبية بثمن معتدل يمكن ان يتناولها الجمهور ويفيد منها . ان الجامعة بذلك تقاوم الأدب الرخيص الذى اخذت سوقه تنفق فى هذه الأيام ، ويستطيع الأساتذه كذلك ان يذيعوا احاديثهم فى الراديو ، وان يزورا المدارس المجاورة ، لا كممتحنين ولكن كأصدقاء . ولست ادرى لماذا يتوارى الأستاذ عن اعين الجمهور فى حين ان رجل الدين والمحامى ورجل السياسة يملأون العيون . ان استاذ المستقبل سيبرز الى الشعب كما برز من قبله هؤلاء .

---

(١) فى مصر جامعتا فاروق وفؤاد والجامعة الأزهرية الآن والمدارس العليا والجامع الأزهر قديما — تشارك الأمة وأحيانا تسبقها فى الشعور الوطنى وطلب الاستقلال . والجلاء ووحدة وادى النيل

الجامعة مكانه والبحث العلمي

ان الجامعة الناجحة تخطو بحياة الأمة ورفاهيتها خطوات الى الأمام ، ففيها يتخرج المواطنون الأكفاء وبمجهودها يرتفع مستوى المدنية ، وعلى أساتذتها يتخرج العلماء ورجال المهن الفنية . ولكن الجامعة لاتزدهر الا اذا أصبحت موطنا للبحث العميق ولست بحاجة الى الاشادة بفائدة البحث المباشر فى المكتشفات الطبية والزراعية التى تعود على الأمة كلها بالنفع العميم غير ان من البحوث العلمية والأدبية مالا يؤدى مباشرة الى فائدة محسوسة . ولكنها كثيرا ماتؤدى عرضا الى مكتشفات عظيمة تفيد منها الانسانية بأسرها . ومن هذه البحوث ماقام به (فرادى) فى المغناطيسية والكهربية وما قام به (منـدل) فى مشكلة الوراثة . وكذلك الآراء الجديدة فى الفلسفة والرياضيات والتاريخ ، والدراسات القديمة كثيرا ماتنتهى بفائدة كبرى لأنها تغير طرق تفكيرنا ونظرتنا الى المسائل الحيوية الهامة . ومن واجب الجامعة ان تدرس المشكلات القومية الخاصة ، من مناخ ومعادن وتاريخ وادب وزراعة وغير ذلك ، والا تتركها للاجانب يدرسونها . ولا ينبغى ان تقف الجامعة عند حد

المشكلات الجامعية وعند حد المشكلات المحلية ، بل على الأساتذة ان يدرسوا المشاكل الانسانية الهامة. ولا يهم كثيرا ان ينجح الأساتذة فى نتائج بحوثهم لأن النجاح الحق يقتضى عبقرية كعبقرية دارون او نيوتن وهو نادر بين الناس : انما المهم ان الاستاذ اذا عمل وحده بعيدا عن الجامعة لم يبلغ اقصى انتاجه كما يعمل الى جوار غيره من العلماء فى الفروع المختلفة . ثم ان الطلبة الذين يتخرجون على أمثال هؤلاء الأساتذة يتعلمون ألا يصدقوا كل ما يكتب ، وأن الحق عسير يحتاج فى تحقيقه الى التجارب .

ويقول بعض المعارضين إن اشتغال الأساتذة بالبحث يقتضى ألا يقوموا بالقاء محاضرات كافية للطلبة ، ويترتب على ذلك مضاعفة عدد الأساتذة والاكثار من المكتبات والمعامل . وهذا يكلف الادارة أموالا طائلة . ولكن هذه الأموال تنفق فى الواقع فى خير الوجوه وتأتى بأطيب الثمار .

التعليم الجامعى للنساء

ان ارتقاء الأمة مرتبط بتعليم البنات فيها ، فلا شك ان تأخر الهند يرجع الى تأخر نسائها ، وقوة الروسيا ترجع الى عمل لينين

على رفع مستوى النساء إلى مستوى الرجال من جميع الوجوه . ان مدنية الأمة تقاس بتقدم المرأة فيها . لأن أثر الأم فى تربية الأبناء أثر قوى لا ينكره أحد . وقد بلغت الأم شأواً بعيداً فى التعليم الجامعى فى انجلترا ، ما خلا جامعة كمبردج التى لا ترخص للبنات أن يصبحن أعضاء فى الجامعة ، وان كانت تسمح لهن أن يحضرن المحاضرات ويؤدين الامتحانات . وفى اكسفورد ما يزال استاذ جامد لا يقبل ان تستمع البنات الى محاضراته . وتستطيع بوجه عام أن تقول ان البنات فى انجلترا يجدن الفرصة التى يجدها البنون فى التعليم ، ولا اقول انهن يستفدن من الفرص المتاحة كما يستفيد البنون ، وذلك لأن كثيرا من أولياء الأمور لا يرون ان ينفقوا اموالهم على تعليم البنات وليست الجامعة مسئولة عن ذلك واذا كان النساء لم يبلغن بعد ما بلغ الرجال من التضلع فى العلم فذلك لحداثة عهدهن بالتعليم الجامعى . وقد أخذ التعصب ضد النساء يتلاشى تدريجا ، وقبل الرجال فى كثير من الأعمال أن يتأمروا بأمر مرأة تترأس عليهم .

الجامعة بأغراضها التى ذكرناها باهظة التكاليف ، فمن أين لها لمال ؟ يقول مدير جامعة برمنجهام ان بجامعته ١٧٠٠ طالب . وإن إيراد الجامعة ربع مليون جنيه فى العام ، وإن الجامعة لكى تستكمل احاجاتها بحاجة إلى نصف هذا المبلغ بالاضافة إلى نفقاتها . وانها

بحاجة فوق ذلك الى مليون جنيه تقيم به مبنى جديدا . من أين للجامعة المال ؟ هناك ثلاثه مصادر هامة : مصروفات الطلبة والهبات واعانة الحكومة ، وطالب الجامعة فى انجلترا يدفع نحو ثلث أو ربع نفقاته فقط ، ومنهم من يتعلم بالمجان . والمصروفات الجامعية فى انجلترا تتراوح بين ٣٠ و ٦٠ جنيها فى العام ، ونسبة المجانية آخذة فى ازدياد فى غرب استراليا جامعة تعلم جميع طلبتها بالمجان . وفى أمريكا كذلك جامعات كثيرة لا تتقاضى مصروفات البتة من أبناء المنطقة على الأقل

وإنما ينبغى أن يكون المورد الأساسى للجامعة إعانة الحكومة ، ومعنى ذلك زيادة الضرائب . وتبلغ نسبة ما يدفعه الفرد فى انجلترا ضريبة على التعليم الجامعى شلنا فى العام . ويجب أن يزاد هذا المقدار للنهوض بالمستوى الجامعى . لأن الجامعة ينبغى أن تقوم عى أساس صحيح ، والا فالأولى للامة ألا تقيمها البتة .

هذا فى البلاد البريطانية . أما فى مصر فالجامعات حكومية وعبؤها على ميزانية الدولة .

جامعات بريطانيا

نسوق جامعة كامبردج مثالا للجامعات البريطانية فجامعة كمبردج هى صغرى الجامعتين الانجليزيتين الشهيرتين ، وكبراهما هى : جامعة أكسفورد . وقد تأسست أولى كليات كمبردج عام ١٢٤٨ ، ثم تعاقب افتتاح كليات أخرى حتى بلغ عددها العشرين كلية ، وكان آخرما أنشىء منها كليتين فى القرن التاسع عشر . لقدغيرت الحرب كثيرا من مظاهر مدينة كمبردج الصغيرة التى تبعد عن لندن ثمانين كيلو متراً يقطعها المسافر فى ساعتين .

لقد أخليت بعض كليات لندن خلال فترة الهجوم الجوى عليها وتناقص عدد طلبتها من سبعة آلاف أبان السلم الى ثلاثة آلاف طالب زمن الحرب وذلك راجع الى حركة التجنيد ، والتحاق الكثيرين ممن يؤثرون ارجاء دراستهم الى ما بعد ، بسائر الورش الفنية . ولقد تغيرت الحياة اليومية أيضا ، فكان الطلبة يروحن ويجيئون فى لباس الحرس الوطنى ، ولا ينالهم على عدم ارتدائهم ثياب الجامعة عقاب .

وقد اختفت القبعات السوداء المسطحة بعد أن تقادم عليها العهد وبليت وذلك لصعوبة الحصول على بديل عنها . أما الجامعة القديمة فظلت على ما كانت عليه فلم يدخل عليها تجديد عدا بنـــاء المكتبة الحديثة العهد التى تم بناؤها عام : ١٩٣٦ .

هذا وقد وضعت مشروعات لبناء دور للجامعات وانظمة جديدة لمناهجها .

الجامعات فى الحرب و بعدها

وعند الدكتور سليمان حزين أن الحرب غيرت الأوضاع الكثيرة فى حياة الغرب . وليس أثرها فى الحياة العقلية والفكرية هناك أقل ظهوراً من أثرها فى الحياة العملية ، وفى معالم الحضارة المادية . والذى يدرس تطور المدنية فى أوربا الحديثة لا يملك الا أن يلمس ارتباط الحياة العامة وتنظيم المجتمع بالحياة العقلية وانجاهات الفكر والثقافة ذلك أن الناس هناك ، لاسيما فى بلد كبريطانيا العظمى ، يملكون من أقدارهم مايؤهلهم لأ يفكروا — أو يفكر لهم فريق منهم على الأقل — فى مستقبل حياتهم وفى الأسس المادية والقواعد العملية التى ينبغى أن يقوم عليها تنظيم مجتمعهم ، بعد أن هزته هذه الحرب هزتها العنيفة ، فكشفت عن نواحى كثيرة من القوة ينبغى أن تدعم وعن نواح غير قليلة من الضعف ينبغى أن تستكمل .

ولعل من أظهر ما يمتاز به المجتمع فى الغرب ، وفى بريطانيا التى نحن بصددها الآن ، حيويته وحساسيته . فهو يشعر — أو يشعر

مفكروه على الأقل — بالحاجة الى الأصلاح ، متى لاحت بوادر تلك الحاجة فى الأفق البعيد ، وهو يبدأ سعيه الى الاصلاح قبل أن تلح الحاجة اليه ، وقبل أن يصبح ضرورة لامفر منها . وقد لانخرج كثيرا عن الحق اذا نحن قسنا حيوية الشعوب والأمم فى الجيل الذى نحن مقبلون عليه بمقدار حساسية كل منها فى الشعور بالحاجة الى الاصلاح ، والسعى اليه سعيا موجها يقوم على أساس من التفكير ورسم الخطط ، بدلا من الاصلاح المرتجل الذى لايسبقه فكر ، ولا ينزع بالناس الى اقتناع .

وكثيرا ما جنبت مثل هذه الحساسية المجتمع البريطانى فى تاريخه الحديث والمعاصر أخطار الانقلابات الخاطفة وويلات الثورات العنيفة . فكان قادة الفكر فيه يستشعرون الحاجة الى التحول ، فيغيرون من أفكارهم ويحولون من اتجاهاتهم ، فى ضوء الخبرة والتجربة سواء منها ما يقع فى بلادهم وتحت حسهم ، وما يقع فى غير بلادهم ولكن فى ظروف قد يتحقق ما يشبهها من قريب أو بعيد فى بلادهم ان تركت الأمور دون توجيه . والغريب — أو لعله ليس غريبا — أن بريطانيا حاولت جهد طاقتها أن تتعلم من هذه الحرب المنتهية أكثر مما تعلم غيرها ، وأن تفيد من هذه التجارب الخطرة التى مرت بها ، أو مر بها غيرها من الأمم ، افادة قد لا تبدو آثارها عاجلة ، لأنها

لا تسلك سبيل الثورة ، ولكن الزمن كفيل بأن يتكشف عنها في جلاء ، لأنها تتناول نظم المجتمع فى الصميم .

والذى يعنينا الآن من حركة التطور هذه أن نحاول أن نتبين مكان الجامعات من التحول الجديد ، ومبلغ مساهمتها فى ارهاف حساسية المجتمع لظروف البيئة والزمن وأطوارهما المتجددة ، بل مكانها من توجيه الفكر والحياة العقلية والثقافية قبل أن تستقر على اتجاه معين ثم ربط الحياة العملية العامة بالحياة العلمية والفكرية للجيل الجديد .

وليس يعنينا فى هذا المقام كثيرا أن نعد ماساهمت به جامعات بريطانيا فى الحرب . اذ الحرب هناك كانت كاملة شاملة ، ساهمت فيها الجامعات كما ساهم غيرها من مؤسسات الأمة ومصالح الدولة ، فاشترك كثير من رجال الجامعات وشبابها فى الحرب والقتال اشتراكا فعليا وهبط عدد الطلاب المنقطعين للعلم والدراسة هبوطا محسوسا ، فأصبح مقصورا على من لم يبلغوا سن التجنيد من الطلاب والطالبات ، أو على المتفوقين تفوقاً خارقا ، والذين يدرسون دراسات خاصة ، تجعل من الخير للأمة استمرارهم فيها ، لعلهم يساهمون يوما ما فى تقدم العلم والمعرفة تقدما يذكى من انتاج الأمة وقدرتها على الحرب والكفاح أو على فئة قليلة من غير الصالحين الجنديه والخدمة العسكرية فى أشكالها

المختلفة ، ثم على نفر متناقص العدد من الآ ـ ب وأبناء الأمم المحايدة وغير المحاربة ممن يدرسون فى بريطانيا . كذلك ساهم علماء الجامعات والقائمون بالأبحاث فيها مساهمة فعالة فى جهود بريطانيا فى الإنتاج الحربى ، فتوثقت الصلة بين معامل البحث ودور الصناعة ، وضاعف الباحثون والمخترعون مجهودهم لتسخير العلم فى خدمة أداة الحرب فى صور واشكال تعدو الحصر . ولولا ذلك ما استطاعت بريطانيا مواصلة الحرب فى الدفاع ، ثم فى الهجوم خلال سنوات الحرب الطويلة ، وعلى تلك الصورة التى انتهت بها وبحلفائها إلى النصر . كذلك توثقت الصلة بين معامل البحث وحقول الزراعة ، فأصبحت بريطانيا بعد انقضاء خمس سنوات على الحرب تنتج ثلثى ما تحتاج اليه من الأغذية بعد أن كانت قبل الحرب لاتنتج غير الثلث . وفى هذا تقدم لا يكاد يصدق ، خصوصا إذا راعينا أن بريطانيا منذ ثورتها صناعية لم تكن بلدا زراعيا بالمعنى المعروف ، وأن التقدم فى الانتاج الزراعى بطىء بطبيعته ، ومع ذلك فقد استطاع العلماء البريطانيون أن يقودوا الزراع وأن يرشدوهم فى مسائل الاستنباط وانتقاء البذور وتنويع المحاصيل واصلاح الأراضى وتجديد الآلات ومكافحة الآفات وغير ذلك مما كان أثره رائع فى انقاذ البلاد من غائلة الجوع ، بعد أن كانت حرب الغواصات أن تحول بين أهلها وبين

أن يطمعوا من الخارج شيئا .

لقد ساهمت الجامعات البريطانية والعلماء البريطانيون إذن مساهمة فعالة فى جهود بريطانيا العسكرية والحربية العامة ، وكان لتلك المساهمة الحيوية أكبر الأثر فى كسب الحرب . ولكن المهم أن الحرب لم تشغل الجامعات ورجالها عن التفكير فى السلم ، أو على الأقل فيما بعد الحرب من سنين قد تكون سلاما ، وقد تكون انتقالا إلى حرب من جديد وإنما انتهز رجال الجامعات فرصة الحرب ليدرسوا ما كشفت عنه من أوجه العيب أو النقص فى مجتمع ترى الجامعات بحق أن عليها جانبا كبيرا من قيادته ورسم خططه للمستقبل ، فى عصر كاد العلم أن يتزعم فيه كل مرفق من مرافق الحياة ، فأصبح التفكير والتبصير ورسم الخطط والتوجيه لزاما على من أراد أن يعيش من الشعوب ، وأصبح واجبا على الجامعات إن هى أرادت أن تؤدى رسالتها للمجتمع فى السلم كما أدتها فى الحرب ، أن تتخذ عدتها وأن تعدل سياستها وتجدد من أداتها الخاصة ومن طرائقها فى البحث والتعليم والتربية واعداد قادة الأمة فى المستقبل .

لذلك أخذ الجامعيون البريطانيون يفكرون فى المستقبل رغم ما أخذتهم به الحرب من شدة وقسوة . وكان تفكيرهم فى المستقبل جديا وشاملا فى الوقت ذاته ، ففتح المجال امام التفكير الحر فى شئون

الجامعة ووظيفتها فى المجتمع ، وكثر النقد وانسعت دائرته حتى شملت الجامعة بمعناها الأوسع ، فشارك فيه رجالها وأبناؤها وخريجوها فى مختلف مناحى الحياة ، بل شارك فيه رجال الأعمال والحياة العملية فى السياسة والصناعة والتجارة وما إليها . ومع أن الحكومة شاءت أن تحفظ للجامعة قداستها وحريتها فلم تشترك فى اللجان العديدة التى تألفت لهذا الغرض ، ولم تحاول التدخل فى شئون التعليم الجامعى وتنظيمه ، غير انه كان مفهوما أن الحكومة تشجع الفكر الحر فيما يتصل باصلاح شئون الجامعات ، كما أن السلطة التشريعية ، واحدى لجان مجلس العموم بنوع خاص ، أثارت غير قليل من النقاش حول هذا الموضوع . بل ان الغريب ان الجامعات فى بريطانيا كانت اسبق مؤسسات الأمة إلى أن تتعلم درسا جديدا من هذه الحرب ، فدعت الأساتذة الأجانب الذين لجأوا اليها من بلاد أوربا قبيل الحرب فى وخلالها ، وكانت كثرتهم من قادة الفكر الحر فى القارة الأوربية ، الى المساهمة فى المناقشات الدائرة حول رسالة الجامعة فى المجتمع والجيل البريطانى الجديد . وأخذت الجامعات بكثير من آراء هؤلاء الأساتذة الأجانب فى رسم خططها للمستقبل . وقد تزعمت الجامعات البريطانية الأمة فى هذا الصدد بالتحرر من بعض قيود الماضى ، والخروج على العزلة المعروفة عن الخلق البريطانى .

وترتب على هذا كله أن خرجت الجامعات البريطانية من الحرب ببرنامج جديد يساير الزمن ، بل يسبق الحاضر إلى ما ينبغى أن يقوم عليه المستقبل . وهذا البرنامج الجديد قد رسمت منه خطوطه الأساسية ومعالمه الكبرى ، كما رسمت منه بعض تفصيلاته ، ولكنه مع ذلك برنامج مرن قابل للتطوير والتغيير ، شأن كل برنامج غير رسمى ، وضعه رجال العلم لتهتدى به جامعاتهم دون أن تلتزم باتباع حرفيته ، أو بالتقيد فى حدوده وذلك أيضا شأن كل برنامج جامعى صحيح يحفظ للجامعة روحها وتقاليدها وتراثها فى أن تحيا حرة طليقة وفى أن تحفظ لكل جيل وكل زمان حقه فى أن يفكر لنفسه بنفسه .

ورسالة الجامعة كما يحددها الجامعيون تشمل مسائل أربع ، عرض لها البرنامج الجديد ، أو قل إنه قد أعاد استعراضها فحددها فى ضوء ما استجد من ظروف وما يجب أن تضطلع به الجامعة من مهام ومسئوليات . فالجامعة ينبغى أولا وقبل كل شىء أن تحتفظ بمكانتها كمركز للثقافة القومية العليا ، تلتقى فيه الأفكار فيحتك بعضها ببعض وتتفاعل فى ظروف مستمدة من الحياة البريطانية ذاتها ، حتى تتخذ فى النهاية طابعا يميز الفكر البريطانى عن غيره والثقافة البريطانية عن غيرها إذ أن الجامعة إذا لم ترتبط بالبيئة المحيطة بها لم يعد لها وجود

ممتاز ، وإذا لم ترتبط بحياة المجتمع وتحس حاجاته العقلية والثقافية لم تستطع أن تستجيب لتلك الحاجات استجابة تعين المجتمع على أن يؤمن بقيمتها يستجيب هو من ناحيته ويتأثر بما تغذية الجامعة من نتاج العقل وثمار الفكر . ويحرص الجامعيون الآن فى بريطانيا حرصا شديدا على أن يؤكدوا للناس من جديد أن الجامعة بعيدة كل البعد عن أن تكون مجرد « معهد عال » يمثل « المرحلة العليا » من نظام التعليم العام . فهى أكبر من ذلك ، فحين وضعت وزارة المعارف البريطانية مشروع قانون التعليم الجديد وأقره البرلمان هناك ، لم يتعرض القانون بكثير أو قليل للجامعة والتعليم الجامعى .

والجامعة إلى جانب ذلك تعنى بناحية ثانية ، هى القوامة على الأبحاث والدراسات التى تساهم الأمة فى تقدم العلم وازدياد المعرفة الانسانية . وهذه الأبحاث ينبغى أن تشمل نواحى المعرفة جميعا ، سواء فى ذلك علوم العقل والثقافة الخالصة ، وعلوم المادة واستغلالها العملى فى قضاء مصالح المدنية . وبدون هذه الأبحاث لا يكتمل للجامعة كيانها ولا تعد جامعة بالمعنى الكامل الصحيح . بل إن من رأى القائمين على شئون الجامعات فى بريطانية الآن أن من الواجب أن تهيأ الظروف بعد الحرب ليخصص رجل الجامعة نصف وقته على الأقل فى إجراء الأبحاث العلمية الخالصة . كما أن من رأيهم أن ترفع

الدولة إعاناتها للجامعات الى خمسة أمثال ما كانت تدفعه قبل الحرب وذلك حتى تتيسر ظروف البحث ووسائله من اقامة المعامل ودور التجارب وحقولها وغير ذلك وإن كان من رأيهم فى الوقت نفسه أن تحتفظ الجامعات باستقلالها التقليدى فى البحث ، فلا تكون مسخرة من الدولة لأجراء ابحاث معينة بالذات أو تقديم بحث على بحث كما كانت الحال أثناء الحرب ، وانما يجب أن تتحرر الجامعة من كل قيد وألا يسيطر على رجالها أى مسيطر خارجى فيما ينزعون اليه من أبحاث مهما تكن قيمتها بالنسبة للأمة أو الدولة . وحجتهم فى ذلك قوية ظاهرة فالجامعة فى كل دولة من الدول إن حصرت أبحاثها فيما تكلفها به الدولة لقاء ماتدفعه من اعانة جرت على أبحاثها رقابة قومية ضيقة تقضى على مايجب أن يتوافر للعلم والبحث من حرية ، وضرب على نتائج تلك الأبحاث أو جانب منها نطاق من السرية التى تقتضيها الأنانية القومية ، ولا بد أن يؤدى ذلك الى تضييق نطاق التبادل الفكرى والعلمى بين الأمم ، مما ينتهى حتما إلى تأخر العلم والبحث العلمى فى تلك البلاد جميعا ، وفى هذا ما يقتل روح العلم ويطفىء نوره ويرجع بالانسانية إلى الوراء وسنرى فى السنوات القابلة ما ينتهى اليه الصراع بين الروح العلمى

الجامعى من جهة والنزعات القومية الظاهرة والخفية من جهة أخرى .

وأما الناحيـــة الثالثة التى تنهض بها الجامعة فى اذاعة المعارف ونشرها عن طريق التعليم ، مع أن هـذه كثيرا ما تكون الناحية الظاهرة من نشـاط الجامعـة ، فان فريقـا من الجامعيين المستمسكين بجامعيتهم يضعونها فى المرتبة الثالثة بين أغراض الجامعة ، وإن كانت كثرتهم لا تستطيع أن تتصور وجود الجامعة إذا لم يقترن فيها البحث العلمى وتقـدم المعرفة بالتعليم ونشر تلك المعرفة ، لاسيما بين شـباب الأمة ، فكلا الغرضين مرتبط بالآخر ومتداخل فيـــه . والجامعة لاتكون جامعة إلا إذا كانت مقـرا للثقافة العليا ، ومركـزا للبحث العلمى الخالص ، ودارا للعلم والتعليم وتخريج العلماء الناشئين والمواطنين الصالحين فى مختلف مناحى الحياه . وقد تنبهت الجامعات الى ذلك منذ القرن الماضى ، فقال أحد الجامعيين إذ ذاك ما معناه : « ان الجامعة اذا لم تقرن التعليم بالبحث كانت كالعين الحمئـــة أو البركة الراكـدة ، يعب الطلاب من سطحها الماء الآسن مختلطا بخيوط الطحلب والريم ، فاذا ماجمعت بينهما غدت كالنبع الفائض ، أو المورد الجارى ينهل منه الطلاب ماء قراحا يروى ظمأهم ، ويجلو نفوسهم ويفيض الى غيرهم من الظامئين » .

وإذا نحن تتبعنا تاريخ الجامعات البريطانية من الناحية التعليمية بدا أنها كانت تعنى فى القرن الماضى أكثر ما تعنى بتخريج قادة الأمة وحكام الامبراطورية . فكان يؤمها فى الغالب أبناء طبقة معينة تعد نفسها للحكم والادارة فى بريطانيا وما وراء البحار . وتعد التعليم الجامعى وسيلة صالحة بل أداة ضرورية فى إعداد الفرد من هذه الناحية . ثم تحولت الجامعات عن ذلك خلال الجيل الأخير إلى ما أصبح يعرف «بالتعليم الجامعى المهنى» الذى يعد الطلاب لمهن معينة وأصبحت كثرة هؤلاء الطلاب ممن يقصدون اليها لينالوا قسطا معينا من التعليم الفنى الخاص المتصل باحدى المهن ، كالمهندسين والأطباء ورجال القانون ونفر من المعلمين وغيرهم ومع أن هذا النوع من التعليم قد زاد من ارتباط الجامعة بالحياة العملية العامة فان رجال الجامعة أخذوا يحسون فى الفترة الأخيرة أنه أدى إلى نوع متطرف من «التخصص» فى التعليم ، فانصرفت جهود الجامعة إلى تخريج المحترفين الذين يجيدون المهن المختلفة . ولكنهم لا ينالون القدر الكافى من الثقافة الجامعية العامة . فالطبيب الجامعى مثلا قد يكون طبيبا ماهرا . ولكن انصرافه الشديد لا تقان تعلم مهنته أثناء وجوده فى الجامعة ومستشفياتها يصرفه عن الافادة من وجوده فى الجامعة لتوسيع ثقافته العامة واستكمال

أسباب تكوينه كمواطن يجب أن يتفهم المجتمع الذى يعيش فيه وأن يدرك قيمة مهنته فى الحياة العامة . وكذلك الحال فى المهندس وغيره ممن يتخرجون فى الجامعة . وحتى فئة المدرسين قد تبين الآن أن الجامعات فى بريطانيا لاتخرج منهم الا ربع من تخرجهم دور المعلمين التى لا تتصل بالجامعات وذلك يعد نقصا تسعى الجامعات إلى تلافيه إذ أن من يريد أن يحترف مهنة التعليم هو أولى من غيره بالحياة فى الوسط الجامعى . والافادة منه فى تكوينه الثقافى العام إلى جانب إعداده لمهنته الخاصة . كذلك ترى الجامعات أن يتسع نطاق عملها فى التعليم المهنى . بحيث يشمل جميع من يعدون أنفسهم للمهن العامة فى المجتمع . لاسيما ذات الصفة الاجتماعية . كمهن إدارة الأعمال فى الشركات والمصانع . ووظائف الأدارة الاقليمية والبلدية وغير ذلك

وأما الناحية الرابعة والأخيرة التى تتمم رسالة الجامعة فى الجيل الجديد فمرتبطة بالناحية الثالثة . ولكنها تتناول جانبا خاصا من التربية والتهذيب يستحق عناية خاصة . وهو جانب التربية الخلقية التى يقصد بها هنا رويض الطالب الجامعى على الخلق الكريم والأخلاق الفاضلة . إذ ليس من وظيفة الجامعة تهذيب النفوس بعد أن يصيبها السقم وتقويم الخلق بعد أن يعوج ولن تستطيع الجامعة أن تحل محل البيت والمدرسة

ولا أن تصلح ما أفسداه الا بقدر محدود وفى حدود ضيقة . وليس يجدى كثيرا فى دور الشباب أن تنقلب الجامعة الى دار للتأديب والتهذيب أو للوعظ والارشاد بل ان ضرر ذلك قد يكون أكثر من نفعه . وليس من الانصاف أن تكلف الجامعة مالا تطيق ومالم تنشأ من أجله . لذلك يرى الجامعيون أن يقتصر التهذيب الخلقى فى الجامعة على ما تستطيع أن تتقن . فتعين الطالب على تربية شخصيته فى دور الشباب . وتحول نشاطه الفائض الى ما ينمى فيه روح الجماعة ويعوده تحمل المسئولية وقبول التضحية كمواطن يعيش للمجتمع كما يعيش لنفسه ويذهب بعض الجامعيين فى بريطانيا الى أن يقترح فرض الخدمة العسكرية الاجبارية على الطلاب خلال عام قبل تقدمهم للدراسة الجامعية مباشرة . فهى خير مايعود الطالب الطاعة . ويحمله على حب العمل فى الجماعة ومن أجلها . وان كانت كثرة رجال الجامعة ترى أن من الممكن تربية الشخصية وانماء روح الجماعة فى الطالب اذا توسعت الجامعات فى تكوين جمعيات الطلبة من رياضية واجتماعية وعلمية وأدبية . فهى التى تمكن الطلاب من أن يفيدوا الى أبعد حد مما يعرف بالحياة الجامعية فى أوسع معانيها . ولا شك أن اعداد الطالب من هذه النواحى المتصلة بالشخصية وتحمل المسئولية وادراك الحق والواجب فى وضعهما الصحيح . كل ذلك مما يعين الطالب بعد تخرجه

على أن يصبح مواطناً صالحاً مهما كانت مهنته فى المجتمع عالما أو طبيبا أو مهندسا أو معلما أو غير ذلك .

وعند الأستاذ عطية الأبراشى أنه فى انجلترا يلتقط الأذكياء كالزهرة ويوضعون فى المكان اللائق بهم وتفتح السبل فى وجوههم . كى تنتفع الأمة بذكائهم . يتعلمون التعليم الابتدائى بالمجان . ولا بد أن يحصلوا على جائزة للمجانية فى المدارس الثانوية . وبعد أن ينتهوا من التعليم الثانوى قد يحصلون على جائزة للتعليم بالجامعة . وهذه الجوائز ميسرة لكل من أظهر ذكاء . ولأضرب لكم مثلا باللورد « بركنهد » الذى كان من اكبر الوزراء العاملين فى وزارة المحافظين فى سنة ١٩٢٩ . فقد نشأ بين احضان أسرة فقيرة . وحدث أن مات أبوه وهو طفل فعنيت والدته بتربيته ، وتربية أخوته بقـــدر ما استطاعت . وقد عرفت ما فطر عليه ابنها من ذكاء متوقد . فعملت على أن تصل به الى حيث يظفر بمجانية التعليم فى جامعة (أكسفورد) وكان لهـــا ما أرادت . فقد نجح فى امتحان الجامعة . ونال الجائزة الأولى التى يتوقف عليها مصيره ومستقبله . ولم يكن معه اذ ذاك من النقود ما يكفى رجوعه الى بلدته . بدأ يتعلم فى الجامعة مع أبناء الطبقة الخاصة من الأمة وظهرت عليه مخايل الذكاء وعلامات النبوغ والمقدرة الخطابية فى ذلاقة لسانه ، وبراعة منطقه وقوة حجته . وفى حفل انتخابى سمعه

الراحل « يوسف تشمبرلن » فأعجب به كل الاعجاب ، وسأله أن يقابله بعد الانتهاء من حياته الجامعية فقابله بعد سنتين ، وعندئذ عرض عليه اللحاق بحزب المحافظين ، ففعل وثابر حتى وصل بعلمه وعمله إلى الدرجة التي كان يتمناها .

فلو لم يعط (اللورد بركنهد) فرصة التعليم لقبر ذكاؤه حيا ، وما انتفعت بلاده بذكائه وعبقريته ، فالتعليم الحق هو الوسيلة الوحيدة لاغلاق السجون ، وهو الطريق الوحيد لرقي الفرد والجماعة ، بل هو سر عظمة الأمم ، ومظهر سيادتها وقوتها ، وقد خرج النبي صلوات الله عليه فيما يخرج له كل يوم . فرأى مجلسين : احدهما فيه قوم يدعون الله عز وجل ويرغبون اليه ، وفي الثاني جماعة يعلمون الناس فقال : « أما هؤلاء فيعلمون الناس ، وإنما بعثت معلما » ثم عدل اليهم وجلس معهم ، وبذلك ضرب الرسول الكريم خير الأمثال في تشجيع التربية والتعليم ، والحث عليهما ، والاعتراف بفضل مهنة التعليم ، وقد علم الله نبيه دعاء يدعوه به فقال « وقل رب زدني علما » ، وكان الرسول صلوات الله عليه يقول « الناس رجلان عالم ومتعلم ولا خير في سواهم » وقال « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم » كما قال « كونوا للعلم دعاة ولا تكونوا له رواة » وفي هذا حث من النبي على تدبر العلم وفهمه ، ومعرفة وجه

المنفعة فيه ، وتطبيقها على المصلحة العامة والخاصة .

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه « يا بنى تعلموا العلم ، فان كنتم سادة فقتم ، وان كنتم سوقة عشتم » وقال مصعب بن الزبير لابنه « تعلم العلم فان لم يكن لك جمال كان لك جمالا ، وان لم يكن لك مال كان لك مالا ، فالعلم زينة من لازينة له ، ومال من لامال له ، وقال (شكسبير) « العلم هو الجناح الذى نستطيع أن نطير به إلى السماء » وقد صرح أحد الكتاب الفرنسيين بقوله : « إن العالم سائر بنجاح نحو التفكير فى الانسانية ومن المحال أن ترقى أمة من الأمم إلا بتعميم التعليم ، فالمدنية والحضارة والتقـــدم فى العلم ، والابداع فى الاختراع من كل مانراه بأعيننا فى الأمم الراقية نتيجة التربية العامة والتعليم المنتشر بين جميع الطبقات » .

وقال (جورج واشنطون) محرر أمريكا : « العلم هو السبيـــل الوحيد ، والأساس المتين لسعادة الجمهور » ولقد نقشت هذه العبارة الثمينة التى فاه بها (واشنطون) فى خطبة الوداع على قلب كل أمريكى وهى : « إن أول أمر هام هو أن تنهضوا بالمدارس لنشر التعليم العام » وقد كتب (توماس جيفرسون) الرئيس الثالث للولايات المتحدة بأمريكا . إن التعليم الذى سيعم كل طبقة من أبناء شعبنا من أغنـــام إلى افقرهم سيكون أول شيء يتعلق بالجمهور الذى أحبه ، وأفكر فيـ

إن الشعب الذى ينتظر أن يكون حرا جاهلا فى وقت واحد هو شعب ينتظر عالما يحدث ولن يحدث ، فحيثما تكون الصحافة حرة ، يكن كل إنسان قادرا على القراءة والكتابة تكن الديمقراطية آمنة » .

ولقد قاسى (هوربس مان ، وماري لبون ، وفرنسيس باركر) من المربين الأمريكيين كثيرا فى سبيل تعميم التعليم بالولايات المتحدة الأمريكية ، ومدارس العامة بها اليوم هى المناهل العذبة التى يرتشف منها كل طفل ماهو فى حاجة اليه من العلم ، وفيها يتعلم الأطفال جميعا الحب والأخلاص لبلادهم ، فبين جدرانها تتحد الميول والنزعات وتسمو النفوس والاغراض ، وتقوم العادات والأخلاق ، وقد تعلم فى هذه المدارس كثير من أطفال اسكوتلندة وويلز وانجلترة وأرلندة وفرنسا والمانيا وروسيا وسورية ، ممن نزحوا إلى تلك الأرض الجديدة فجعلتهم مدارس الشعب جميعا أمريكيين ، وغرست فى نفوسهم حب وطنهم الثانى ، الذى اتخذوه مستقرا ومقاما ، فهم الآن يعدون أنفسهم أمريكيين ، لهم ما للأمريكيين وعليهم ما عليهم ، والفضل فى ذلك الى مدارس الشعب ، التى يتلاقى فيها كل طفل وطفلة من كل جنس ودين وطينة ، على أرض واحدة ، وتحت سقف واحد من غير تفريق أو تمييز .

وللمدارس العامة فى أمريكا مكان فى قلوب أفراد الشعب

ينظر اليها نظرة تقديس وإجلال وإكبار ، ويعتقد الأمريكيون جميعا أن بالتربية والتعليم تستطيع الولايات المتحدة أن تقود العالم فى الأفكار والاختراعات والصناعات ؛ لذلك يدفعون ضرائب التعليم بقلوب راضية ، ونفوس مطمئنة ، ولا يعدونها حملا ثقيلا على أكتافهم بل يعدونها واجبا مقدسا نحو أمتهم ، التى يفخرون بالانتساب اليها ، والعمل على إسعادها ورقيها . ولقد كشفت الحوادث التى تجلت عنها الحرب أن الأمريكيين حقا قد ملكوا زمام العالم بهذا الاختراع الجديد ، الذى مكنهم من استخدام الطاقة الذرية .

وفى الولايات المتحدة لاينظر دافعو الضرائب اليها نظرتهم الى صدقة من الصدقات . بل يعدونها ضرورية لرقى الأمة وسعادة المجتمع ويثقون بأن سعادة الشعب تتوقف على ذكائه . وتربيته تربية حقة . ويعتقدون أن الانفاق على تعليمه أفضل الوسائل للغنى والثروة . فالعمل المقترن بالجهل ليس بالرخيص . بل هو غال دائما . فكثيرا مايتلف العامل الجاهل الآلة التى فى يده لجهله . وهو على الدوام فى حاجة إلى من يراقبه ويلاحظه . ويبين له طريق العمل . وهو فى الغالب لاذمة له فى الخير . والجاهل لا يعرف كيف يستعمل أوقات فراغه فى أمور نافعة . من إصلاح نفس أو جلب مسرة ، أو قراءة أو استماع محاضرات أو مناظرات . فيعتاد السكر والميسر .

والعنف والقسوة ، والاخلال بالنظام ، والثورة على القانون ، حتى يصبح خطرا عظيما وفسادا كبيرا .

أما العمل يصحبه العلم والذكاء وحسن التصرف فقد أنشأ فى أمريكا المصانع المختلفة ، وجعلها تنتفع بغاباتها الواسعة ، وبراريها الشاسعة ، وهيأ لها فرصا كبيرة للحصول على الأموال وتثميرها ، حتى أصبحت الولايات المتحدة أغنى أمم العالم ثروة ، وأعظمها علما وصناعة ، وأرقاها زراعة وتجارة .

وإذ نحن نعدد فوائد العلم والتعليم وجدنا أنفسنا أمام قضية أدلة الاقناع فيها واضحة ، فمقدماتها من البدهيات ونتائجها أمور مسلم بها ، والله تعالى يقول : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، وقد كان النبى الله عليه وسلم » ، يشجع على التعليم عملا وقولا ، فمن ذلك أنه كان يطلق سراح أسرى الحروب إذا علموا بعض المسلمين القراءة والكتابة ، وقال « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وقال الغزالى « من أصاب علما فاستفاد وأفاده كان كالشمس تضىء لنفسها ولغيرها وهى مضيئة » .

وقال بعض الحكماء « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » ، وقال افلاطون « التعليم أفضل شىء يملكه أفضل الرجال » ،

وقال (مونتين) « الجهل أس الرذائل » ، وقال (فولر) « التعليم

خير منحة يمكن أن تمنح ، وقال (جيمس ماديسون) الأمريكي « إن حكومة تكسب حب الشعب من غير تعليم مقبول عند الجمهور لايكون عملها إلا مقدمة لرواية هزلية أو مأساة أو مقدمة لكلتيهما » .

وقد كان من نتائج الحرب الكبرى الماضية أن تنبهت الأمم في أمريكا وأوربا إلى شعور جديد نحو التعليم ، فلما وضعت تلك الحرب أوزارها اخـــذت انجلترا تفكر في الوسائل التي تنهض بالتعليم ، فبعد أن كان التعليم إجباريا الى الرابعة عشر ، مدت مدة التعليم الى الثامنة عشرة ، ورحبت البلاد بقانون التعليم في ســـنة ١٩١٨ الذي وضع لرفع مستوى الجيل الجديد في التربية والتعليم ، وقد تحملت هذه الأمة العظيمة في سبيل ذلك المشروع عبئا ماليا ثقيلا أكثر بكثير من العبء الذي كانت تتحمله في سبيل التعليم قبل تلك الحرب الماضية فوزارة المالية الانجليزية تدفع إعانة للتعليم اكثر من ثلاثة أضعاف لاعانة التي كانت تدفعها قبل سنة ١٩١٤ . وذلك لأن التعليم في انجلترا أمر يهم الشعب والحكومة والجهات المحلية كل الاهتمام ، لأن كل فرد هناك يشعر بفائدة التعليم وأثره ، ولأمر ما قال الفيلسوف (أرسمس) « أعطني إدارة التعليم وأنا أتعهد لك بقلب العالم » .

التعليم عند العرب وفى الاسلام

كان لدى عرب الجاهلية التنجيم والطب العتيق دون العلم النظامى، كان عندهم والعيافة والسحر. وعند الأستاذ كارادى فوفى كتابه « مذهب الاسلام » : لايجد الانسان فى الشرق الاسلامى ذلك الذوق الفطرى للتعليم ، ولا الميل للبحث عن المناهج العقلية ولا الرغبة فى التقدم فى أمثال هذه المسائل . ولم يهتم الاسلام بأمر الطفل وكذلك لم تحفل به المسيحية . والطفولة عند المسلمين بسيطة ، ويبدو أنها سعيدة . ولا تجد فى القرآن إلا آيات قليلة جدا تتعرض لهذا الموضوع . فالكتاب المنزل لايشمل إلا بعض الآيات الخاصة بالواجب نحو اليتامى وحمايتهم هذا والسير التاريخية المتعلقة بالطفولة نادرة فى الأدب الأسلامى وقد ألفت رسائل جليلة فى التربية باللغة العربية خلال القرون الوسطى ، ولكن المؤلفين لها من المسيحيين العرب . وقد أهمل المفكرون المسلمون هذا الموضوع بعض الشىء ، وأثر الابتكار فيما أضافوه ضئيل وقد عرفوا الآثار التى ألفها المسيحيون ، أو التى درسها المسيحيون ، مثل الكتاب المؤلف فى التربية والمنسوب إلى أفلاطون والغالب أن

كيون من مدرسة فلوطرخس ، وهو الكتاب الذى قام بترجمته أحد المسيحيين (١) .

وقد أخطأ الأستاذ كارادى فو فى هذا الرأى ، ويقول الدكتور احمد فؤاد الاهوانى انه لو وقع الأستاذ كارادى فو على رسالة القابسى المخطوطة لغير من رأيه ، وخفف هذا الحكم الذى ينسب إلى المسلمين الجهل بموضوع التربية ، خصوصا تربية الأحداث والصبيان ، ثم الاعتماد التام على المسيحيين من العرب(٢) ، وما قاموا بترجمته فى هذا الفن عن عن اليونانية وغيرها !

وقد تبين لنا أن المسلمين ألفوا فى التربية كتبا مستقلة ، منها كتبا مستقلة ، منها كتاب ابن سحنون ويرجع تاريخه إلى القرن الثالث الهجرى ، ومنها كتب متأخرة عن هذا التاريخ بعضها مطبوع وبعضها لايزال مخطوطا ، وإلى جانب ذلك ثمة فصول كثيرة متناثرة خلال مؤلفات الفقه ، وكتب الفلسفة وموسوعات الأدب ، تتحدث عن تعليم الصبيان ، وتصف أحوالهم وتبين أحكام التعليم .

وهذه الكتب والرسائل والشذرات أغلبها إسلامى بحت ، تغلب عليه الروح الأسلامى ، وعلى الأخص ماذكره الفقهاء فى كتب الفقه

---

(١) ص ١٩٤ من كتاب مذهب الاسلام : كارافو .

(٢) التعليم فى رأى القابسى : الدكتور الاهوانى

ورسالة القابسى تزيل الخطأ من أن المسلمين لم يعنوا بتعليم الصبيان ، وتثبت أن المسلمين ابتكروا فى التربية آراء جديدة لم يصطنعوها عن العرب المسيحيين ، أو ينقلوها عن التراجم اليونانية واللاتينية التى قام النقلة من المترجمين بتقديمها الى العالم العربى .

وهذه الرسالة دليل على تأصل الميل إلى فن التعليم ، والاهتمام بالطفل ، والاشتغال بالبحث والتنقيب والتفكير فى المسائل ، من جميع أطرافها وزواياها رغبة فى التقدم والرقى .

لهذا كانت رسالة القابسى فى أحكام المتعلمين ، وأحوال المعلمين والمتعلمين ، من جهة ماجاء فيها من آراء مفصلة وحل للمشكلات المعضلة ، وتسجيل لجميع الأمور التى تخص التعليم والتأديب ، رسالة عظيمة القدر بالغة الأهمية .

وإذا نظرنا إلى القابسى كأحد المربين فى الاسلام ، فهو صاحب رأى ، وصاحب رسالة ترفع اسمه إلى قائمة قادة التربية ، ولا سيما إذا عرفنا أنه عاش فى القرن الرابع الهجرى ، أى فى صميم القرون الوسطى التى يعدها المؤرخون فى عصور الظلام والتأخر فى حياة العالم

ذلك أن الميزان الذى يقاس به قادة الفكر وزعماء الرأى ، هو سبقهم للزمان ، والتقدم فى سبيل الرقى لبنى الانسان . وطريق الرقى هو الطريق الذى يميز عالما عن آخر ويرفع المفكرين إلى قوائم المجد والتخليد

ومن الآراء التى تجعلنا نضع القابسى فى سجل المبرزين ، المناداة بالتعليم الالزامى ، فهذا الرأى من أدلة التقدم ، ولم تأخذ به الحضارة الحديثة إلا فى عصور متأخرة ، ولا تزال الدول تنادى به عاملة على نشر التعليم بجميع الوسائل . ليتزود من نور المعرفة جميع افراد الأمة والذين قصروا التعليم على طبقة معينة ، وحرموا أغلب الشعب من نعمة المعرفة . إنما كانوا ينظرون الى مصلحة طبقتهم ، لينعموا بالسلطان والثروة والجاه ، لأن العلم يفتق الأذهان ، ويبصر الانسان بحقوقه وواجباته، ويدفعه إلى المطالبة بهما .

وهذه هى الأنانية المتأصلة فى النفوس .

وقد برزت الى العالم أفكار جديدة ، تحمل فى طياتها روح الايثار والخير للانسانية كافة ، ليشارك الناس فى الحقوق وليتمتعوا بالحرية والاخاء والمساواة .

ان حرمان فريق من الناس التعليم ، هو القتل الأدبى . لأنه يقبر العقول ، ويطمس الأذهان ، ولعل هذه العقول اذا زالت عنها غشاوة الجهل أن تتفتق عن الخير والحق ، والعمل الصالح للانسانية بما لا يستطيع أن يفعله أبناء الأغنياء .

وقد عادت الدول الاسلامية الى نوع من الاستقراطية الحادة ، خصوصا فى العصور المتأخرة ، حيث انطوت الطبقة الرفيعة على نفسها

وعلت على العامة علوا كبيرا ، ولم يكن الحال كذلك فى صدر الاسلام ولا تتفق هذه النزعة مع الروح الصحيح للاسلام . والدليل على هذه الأستقراطية هو اتخاذ الأمراء ومن شاكلهم المؤدبين لأبنائهم حتى لايختلطوا بأبناء العامة فى الكتاتيب ، وقد أشار الى ذلك الجاحظ فى البيان والتبيين عند تقسيمه المعلمين قسمين ، قسما يعلم ابناء الملوك والأمراء ، وقسما يعلم أبناء السوقة . وأشار ابن سينا فى كتاب السياسة الى هذه النزعة أيضا ، فلم يقرها ، وآثر لمصلحة التعليم وفائدة الطفل أن يشترك مع غيره من الصبيان .

أما القابسى فانه خاطب الجمهور ، وفكر فى مصلحته ، ونظر الى فائدة أبنائه ، وأهمل الكلام على الأمراء والاشراف ، فلا نجد اشارة الى هؤلاء المؤدبين الذين يصحبون الملوك لتعليمهم وتأديبهم .

فالقابسى ، حين يطالب بتعليم أبناء المسلمين جميعا ، القادر منهم وغير القادر ، والموسر والمعسر ، بل المعدم ، وحين يقدم اليهم لونا واحدا وثقافة واحدة ـ لايخص بها أحدا دون أحد ، وانما يجرى فى طريق التقدم العقلى ، ويشرف على الانسانية من سماء العدل والحق والخير

وهذه هى الديموقراطية فى التعليم . فكما أن هناك ديموقراطية عقلية تفتح الأبواب لجميع الناس لينهلوا من بحور العلم التى لاتغيض . وقد كان مذهب أهل السنة مذهب الجمهور ، فكان أنسب المذاهب

إلى عقولهم ، وأقربها إلى الديموقراطية .

وقد أشارت الآنسة أسماء فهمى ، وكذلك خليـــل طوطح ، فى رسالتيهما إلى الروح الديموقراطى البارز فى التعليم عند العرب .

هذه الديموقراطية هى التى أوحت إلى القابسى أن ينادى بتعليم البنات ، بالرغم مما يعترض تعليمهن من عقبات ناشئة عن المجتمع الاسلامى وشدته ، فى النظر الى علاقة الرجل بالمرأة ، وغيرة المسلمين على العرض ، وما جاء فى القرآن من عقاب شديد للزانى والزانية . ولاتنس أن روح المحافظة على المرأة هى التى أدت الى الحجاب الشديد فى أواخر عصور المسلمين .

والفرق بين التعليم الالزامى كما يقرره القابسى وبين التعليم الالزامى الذى ساد الدول التى أقرته منذ القرن التاسع عشر الميلادى هو أن الدولة الحديثة مكلفة بالتعليم ، وملزمة بافتتاح المدارس التى تسمح بتعليم جميع أفراد الدولة ذكورا واناثا . فالتعليم واجب على الدولة ومن جهة أخرى فهو حق حقوق الأفراد ، عليهم أن يطالبوا به ، وأن يقدموا أبناءهم لتلقى العلم فى المدارس التى تنشئها الدولة . واذا امتنع أحد عن تعليم أبنائه ، حل به العقاب لمخالفته هذا الواجب بينما الزام القابسى للتعليم الزام دينى أدبى لا الزام قانونى ، لهذا لم يضع القابسى عقابا لمن يترك أبنه دون تعليم ، بل ترك هذا الوالد لعقاب

الله وضميره وجزاء المجتمع فقال : « لو ظهر على أحد أنه ترك أن يعلم ولده القرآن تهاونا بذلك لجهل وقبح ونقص حاله ، وضع عن حال أهل القناعة والرضا » .

وقد سئل القابسى عن « رجل امتنع أن يجعل ولده فى الكتاب هل للامام أن يجبره ؟ . . . وكيف ان كان له أب وله مال ولا يبالى ذلك فهل للامام أن يسجنه أو يضربه على ذلك أم ليس ذلك » . وفى هذا شعور أهل ذلك الزمان بمسئولية اهمال الطفل ، ومحاولة تقرير قاعدة العقوبة لمن يتخلف عن أداء هذا الواجب . ولكن القابسى لم يستطع فيما أجاب به السائل ، أن يقرر هذه العقوبة لأن منهجه الفقهى لا يبيح أن يقرر أمرا ليس له نص فى الدين .

واذا كانت الحكومات الحديثة تنفق من مال الدولة الشىء الكثير على التعليم باقرار نواب الأمة الممثلين لها لفائدة الأمة ، فقد نصح القابسى بتعليم أبناء المسلمين غير القادرين على الانفاق على التعليم ، ودفع أجر المعلم ، بأن يقوم بيت مال المسلمين بالانفاق عليهم .

وقد تطورت الفكرة فيما بعد الى نظام الأوقاف التى يحبسها الموسرون على المدارس ضمانا لحياتها ، واستمرارا لوجود التعليم .

وليست فكرة التعليم العام ، أو تعليم البنات هما الفكرتان الوحيدتان المقررتان عند القابسى ، مما يجعلنا ننظر اليه على أنه

مفكر ينشد الرقى والتقدم ، بل هناك آراء أخرى كثيرة ترفع القابسى إلى درجات المفكرين البارزين ، وتسمو به إلى منزلة المصلحين .

من ذلك رأيه فى طرق الحفظ التى ينبغى أن يصحبها الفهم . وهو من الآراء الصائبة الصحيحة . ثم التثبت مما يحفظ الصبى فلا ينقله المعلم من سورة إلى سورة حتى يحفظها باعرابها وكتابتها .

وفى طرق التربية والتأديب ، هناك كثير من الاشارات الدالة على البصر بشئون الصبيان وحسن سياستهم . ومن ذلك الحذر من الصبيان إذا بلغوا سن الاحتلام ، وعدم الجمع بين الذكور والاناث بعد سن الطفولة . ومن ذلك اتخاذ العريف ليعاون المعلم . مما يفيد الصبى فى حياته من جهة الاعتماد على النفس ، وتكوين الشخصية . ويتصل بذلك أن يقوم الصبى بأعمال تفيده فى تخريجه مثل كتابة الرسائل للناس ، وإملاء الصبيان بعضهم على بعض . مع الابقاء على صلة الدين بالتعليم وعلى التربية الخلقية والعقاب وطرق التعليم ، فلا نعود اليه . وانما نحب أن نعلل هذه الآراء لبيان المصادر الذى استقى منها القابسى أحكامه فى التعليم ، لنرى أكان مبتكرا لم يسبقه أحد أم ملخصا لمن تقدمه ، أم ناقلا عن شيوخه ، مقلدا لهم .

والقابسى قد فصل القول فى موضوع التعليم من جميع نواحيه ، فكتب عن التلميذ والمعلم ، والمناهج التى يتلقاها الصبى ، وطرق التعليم

والتأديب ، ومكان التعليم . وهذا التفصيل يصف أحوال تعليم الصبيان فى القرن الرابع الهجرى فى شمال افريقية .

ولا نستطيع أن نتخذ هذا الوصف عنوانا على التربية الاسلامية فى جميع العصور ، وعند جميع المفكرين المسلمين . وقد اتضح لنا أنه فيما يتعلق بالتربية عند المسلمين قد اختلفت آراء المفكرين فيما يختص بأغراض ووسائل التعليم . فالغزالى يختلف عن ابن مسكويه ، وابن سينا يختلف عن ابن خلدون ، وهؤلاء يختلفون عن إخوان الصفاء ، وهكذا .

وقد نجد بعض الآراء المشتركة العامة عند المسلمين جميعا ، أخذوا بها فى جميع العصور ، مثل البدء بتعليم القرآن ، والنص على تعلم القراءة والكتابة ، وأخذ المتعلمين بالشفقة لا بالشدة . ومع ذلك فهناك اختلاف فى طريقة التعليم فى المشرق والمغرب ، كما ذكر ابن خلدون فى مقدمته ، وهو خلاف على هذه المسائل العامة الأولية المختصة بتعليم الصبيان

وإذا نزلنا إلى ميدان التفصيلات المتعلقة بالتعليم فاننا نجد الخلاف كبيرا بين أصحاب المذاهب . فابن مسكويه يرى أن الغرض من التعليم هو الوصول الى الحق والخير والجمال . وإخوان الصفاء يرغبون فى تنشئة الناس على مذهبهم الفلسفى وعقيدتهم السياسية ، والغزالى يمهد

الى معرفة الله بطريق التصوف ، ومجاهدة النفس ورياضتها

والأمثلة كثيرة على هذه الاختلافات الجزئية ، وعلى الأغراض العامة . لهذا كان من الخطأ أن ينظر الباحثون فى التربية الاسلامية جملة ، دون تحديد الجهة التى تقوم بالتعليم وتعمل عليه ، ودون تحديد العصر الذى ساد فيه هذا اللون من التعليم .

أما التفسير الصحيح للآراء الاسلامية المختلفة فى التعليم فهو أن نردها الى المذاهب العقلية التى كان أصحاب هذه الآراء التعليمية يعتنقونها من جهة ، ثم ملاءمة هذه الآراء لحالة المجتمع من جهة أخرى ويقول الدكتور الاهوانى : أن التفسير ينصرف إلى ناحيتين ، ناحية عقلية ، وناحية اجتماعية . وعلى هذا الأساس الجديد الذى نطالب به ، والذى لم يسبقنا اليه أحد من الذين عالجوا الكتابة فى التربية عند المسلمين ، تستقيم النظريات التعليمية وترد الى أصولها الصحيحة ، ويتضح لنا السر فى اختلاف مذاهب التعليم والتأديب فى الممالك الاسلامية المختلفة وفى عقول المفكرين .

وخلاصة هذا الرأي الجديد الذى نقول به ، أن أهل السنة كانت لهم طريقة خاصة فى التعليم ، وللفلاسفة طريقة أخرى ، وللمتصوفة طريقة ثالثة . بل أكثر من هذا أن كل مفكر له طريقة خاصة فى التعليم تتلاءم مع مذهبه ، وتتفق مع مجموع آرائه .

وليس هذا غريبا فى شىء لأن التربية تعد جزءا من المذهب الفلسفى النظرى أو العملى الذى يتصوره ويعتقده المرء فى الحياة . ومن الطبيعى أن يعمل أصحاب المذاهب المختلفة على نشر مذاهبهم وإذاعتها فى الناس ، وتنشئة الأجيال الجديدة عليها ، بطريقة من طرق التعليم ؛ لأن من طبيعة الانسان إذا اعتقد الحق أن يذيعه فى الناس ، ويحملهم على المشاركة فيه .

وهذا مافعله أفلاطون قديما ، حين رسم فى جمهوريته عن التربية ليطبع الناس على آرائه . وهذا مافعله روسو ، وسبنسر وغيرهما أى أن صاحب الفكر الجديد إذا أراد أن يكفل لآرائه الذيوع بين الناس ، بطريقة عملية تحمل الناس على اعتناق آرائه ، فانه يصف طريقة التعليم الملائمة لهذه الآراء .

ولما كان المعلمون فى الكتاتيب هم من أهل السنة ، شب الناس بالفعل على طريقتهم ، وتشبعت بهـــا عقولهم ، وتطبعت نفوسهم ، وصعب الانصراف عنها ، وأصبح المسلمون ينظرون إلى الحياة من خلال هذا المنظار . وبذلك ســـاد مذهب أهل السنة ، وأصبح هو صاحب الغلبة فى أغلب الأقطار الأسلامية .

أما الناحية الثانية التى بها تفسر الآراء التعليمية فهو نسبتها إلى المجتمع الذى ظهرت فيه هذه الآراء ، اذ كان التعليم مظهرا من

مظاهر الحياة الاجتماعية .

وهذا يقتضى منا أن ننظر هل كانت الآراء التعليمية واقعية أم مثالية ؟ فاذا كانت واقعية فانها تصف ماهو كائن فعلا فى المجتمع ، وتعد فى هذه الحالة ظلا للحياة الاجتماعية . واذا كانت مثالية ، فانها لاتتعدى عقول الذين نادوا بها ، ولا تمثل حقيقة المظهر الاجتماعى

وقد كان القابسى واقعيا يصف ما كان يجرى فى المجتمع الاسلامى فى القرن الرابع الهجرى .

ولم يكن الحال كذلك فى الآراء التى بسطها كثير من المفكرين فى الاسلام . ونضرب فى هذا الصدد المثل بما ذكره الغزالى عند الكلام على الأجر ، فقد نصح بالتعفف عن تناول الأجر تشبها بالرسول ، وما ينبغى أن يكون ، ولم يكن هذاهو الواقع ، حيث كان المعلمون يأخذون الأجور على التعليم ، ولم يتحقق رأى الغزالى لمخالفته طبائع الأشياء ، واغراقه فى التطلع الى الغايات الروحية .

كان التعليم فى فجر الاسلام تطوعا وذلك لقوة الروح الدينى ، وتغلبه على النزعات المادية ، فلما فترت هذه الروح أخذ المعلمون الأجور ، ولما فسد المجتمع تطلع المعلم الى ماهو أكثر من الأجر . وقد رأينا كيف أجاز القابسى أن يتناول المعلم الهدايا فى المواسم والأعياد كما جرت به العادة فالقابسى يخضع لروح المجتمع ، وينزل على أحكامه . كذلك

كانت بطالة الصبيان من عادة الناس . فالتفسير الصحيح لشئون التربية والتعليم يقتضى الرجوع الى المجتمع الذى يشكل حالة التعليم ، تبعا للتيارات التى تسوده وتوجهه .

فاذا كان المعلم فى الكتاب ينصرف الى حفظ القرآن حتى يبلغ بالصبى الختمة ، فلم يكن هذا العمل من ايحاء قادة الفكر ، أو من رغبة المعلم نفسه ، بل هو اتجاه الجمهور وتيار المجتمع . وقد بلغ من فرح الآباء بحفظ ابنائهم القرآن ، أنهم كانوا يدفعون فوق أجر المعلم ، أجراً آخر للختمة احتفالا بهذه المناسبة السعيدة .

ولم يمتنع المسلمون عن تعليم الحساب ، وأجاز القابسى تعليم الحساب ، ولكن أولياء أمور الصبيان لم يطالبوا بتعليم أبنائهم الحساب بل وضعوا نصب أعينهم شيئا واحدا هو أن يحفظ أبناؤهم القرآن

ففى حياة النبى كان التعليم نادرا فى الجزيرة العربية ، وفى الفرس والشام ومصر نفسها . وكان عدد الذين يعرفون الكتابة والقراءة قليلا جدا ، ثم بدأت الكتابة تنتشر بايحاء النبى وتشجيعه . ثم ظهرت الكتاتيب فكانت مظهرا للحياة الاجتماعية عند المسلمين . ثم احتاج الناس الى تنظيم العلاقة بين المعلم والصبى ، بما يتفق مع الشريعة الاسلامية المطبقة فى العالم الاسلامى ، فأدلى الفقهاء باحكام الشرعية التى تفصل فيما قد ينشأ من نزاع بين المعلم وآباء الصبيان على الأجر ،

وما قد يصيب الصبي من اضرار إذا وقع المعلم العقاب عليه . والفقهاء هم المختصون بالتشريع فى المسائل الجزئية التى لم يردفيها نص فى القرآن واجتمع كثير من هذه الأحكام على مر الأيام ، جمعها ولخصها وضمها فى كتاب واحد أبو الحسن القابسى ، الذى الف رسالته فى نهاية القرن الرابع . وبذلك تمثل هذه الرسالة أحوال التعليم فى ذلك القرن وتمثل التطور الذى حدث فى هذا الفن منذ صدر الاسلام حتى ذلك الوقت ، لأن القابسى نفسه تتبع ذلك التطور فى أبحاثه ، كما يتضح لنا من النظر فى رسالته . وقد لحق تعليم الصبيان فى الكتاتيب بعد القرن الرابع كثير من التغيير ، لم يكن فى سبيل التقدم بل فى سبيل الجمود .

وأهم المظاهر التى استحدثت على الكتاتيب هى اعتمادا كثرها على اوقاف الموسرين .

وفيما عدا ذلك بقى المنهج ثابتا وهو تعليم القرآن والكتابة . وبقيت الألواح فى أيدى الصبيان للكتابة فيها ، وبقيت العصا أداة التأديب فى يد معلم .

والخلاصة أن تفسير حالة التعليم فى عصر من العصور يقتضى النظر إلى آراء المربين ، وصلة آرائهم بالمذاهب العقلية التى يعتنقونها كما يقتضى النظر إلى حالة المجتمع الذى تفرع عنه التعليم كمظهر من

الحياة العقلية .

فإذا طبقنا هذين المبدأين على الغرض من التعليم كما جاء عند القابسى باعتبار أن الغرض من التعليم هو النقطة التى تلتقى عندها جميع شئون التربية ، ومنها تتفرع أحواله المختلفة ، فاننا نجد أن القابسى كان يقصد إلى غرض دينى ، وكذلك كان المجتمع يريد . لهذا اقتصر التعليم فى الكتاب على القرآن والكتابة فى الغالب .

وعند الأستاذ عباس محمود العقاد فى مقاله « التعليم عند العرب » أن التعليم عند عرب الجاهلية كان يجرى على سنة الفطرة الأولى ، وهى أن يتلقى الأبناء عن الآباء مايحتاجون اليه من الصناعات والمعارف سواء فى معيشة المجتمع أو فى المعيشة البيتيـــة . فكانوا يتعلمون الفروسية وما تشتمل عليه من ركوب الخيل والمصارعة واستعمال السلاح وبعض الألعاب الرياضية ، ويضيفون الى العلم بالفروسية علما آخر بشئون الثقـــافة التى كانت ميسرة فى ذلك الزمان ، وهى تتلخص فى رواية الأخبار وحفظ الأشعار والدراية بالانســـاب والأمثال ، مع طرف من العلم بالنجوم والأنواء ودلالات الطريق.

ومن سروات القوم من كان يصحب أبناءه فى قوافل التجارة حين يبلغون أشدهم ويتهيأون للاستقلال بالمعاملات التجارية وتصريف الأموال ، ولا يندر فى هذه الحال أن يعلموهم الكتابة والحساب .

أما الأعمال البيتية كالنسج وعلاج الألبان وصنيع الخبز والطعام ونصب الخيام فما كان منها من عمل الرجال أو النساء تعلمه الأطفال على السواء فى أحضان الأسرة على ذلك الأسلوب الفطرى . وكان معولهم فى تعلمه على المشاهدة والتدرب والمحاولة المتكررة ، كما يتعلم صبيان الصناعات فى قرى الريف إلى هذه الأيام .

ولما عرفوا حياة المدن درجوا على عادة تنم على الحصافة وبعد النظر فى تقويم أبدان الناشئة وخلائقها واستدامة الصلة بين روح البداوة وروح الحضارة العربية ، وهى ارسال الأبناء فى سن الطفولة الى الصحراء ليتعودوا فيها مقاومة العناصر الجوية ومزاولة الصعاب ويتحرزوا بهذا الحرز الطبيعى من ترف المدنية ووباله على النفوس والأجساد ، وطرأ بعد ذلك سبب آخر المثابرة على هذه العادة الى ما بعد أيام الجاهلية ، وهو تصحيح اللسان من العجمة واللحن واستحياء خلائق المروءة العربية فى الجيل الذى فارق الجزيرة الى الأمصار القصية بعد الفتوح . ولم ينس أول خليفة أقام ملكه فى الشام أن يرسل أبنه الى باديتها ليتربى فيها على هذه السنة العربية العريقة ، فنشأ يزيد بن معاوية مع أمه ميسون بنت بحدل الكلبية فى صحراء بنى كلب ، وأخذ من الصحراء خير ما كان فيه ، وهو الفصاحة وحب الصيد ورياضة الحيوان .

وكان للعرب صناعات خاصة . كالشعر والكهانة والطب والعيافة والدلالة يتعلمونها كذلك على أسلوب النقل والتلقين . فالشاعر يتبعه الرواية ويحفظ عنه شعره وشعر غيره ثم ينظم هو الشعر حين يقدر على نظمه . والكاهن والأطباء والعيافون والأدلاء يصحبون أبناءهم وذويهم ليدربوهم ويزودوهم بأسرارهم . ويتركوهم من بعدهم خلفاء لهم على ذلك الميراث .

وربما اجتمع تعليم الحرب والأدب فى أستاذ واحد كما يؤخذ من هذين البيتين .

اعلمه الرماية كل يوم فلما استد ساعده رمانى
وكم علمته نظم القوافى فلما قال قافية هجانى

أو ربما تعلم الولد فى أحضان الأسرة كل هذا أو معظم هذا كما يؤخذ من هذين البيتين :

وربيته حتى اذا ما تركته أخا الحرب واستغنى عن المسح شاربه
تعمد حتى ظالما ولوى يدى لوى يده الله الذى هو غالبه

ولم تزل هذه هى طريقة التدريب والتنشئة فى الصحراء من أزمنة الجاهلية الى الزمن الحديث .

ثم اتسعت الحضارة العربية فى الآفاق ، وقصرت تلك الأساليب الفطرية عن الوفاء بحاجة الدولة الى المتعلمين والعمال الصالحين فنشأت

صناعة التعليم ووجدت فى المدن والقرى طوائف المعلمين المنقطعين لهذه الصناعة . وهم درجات يمكن أن نحصرها فى درجتين اثنين :

أولاهما : تعليم الأطفال الى السن التى يحفظون فيها القرآن كله أو بعضه . ويلمون فيهـــا بقواعد الكتابة والحساب . وكان ذلك موكولا الى أناس من الحفاظ يتوسطون بين مرتبة الأميين ومرتبة المثقفين . ولا يحسبون منهم فى كثير من الأحوال .

ويرتقى الطالب من هذه المرتبة الى ما فوقها . وهى مرتبة التوسع فى التحصيل أو مرتبة التخصص والاستقصاء . ويبتدئها الطالب فى حلقات الدرس العامة وأكثرها فى المساجد التى يجلس فيها الأساتذة لإلقاء دروسهم على كل من يحضرها . ويواصـــل حضورها على اختلاف موضوعاتها من فقه ولغة وأدب ومنطق وطبيعيات ورياضيات وقد كانت دروس الرياضيات والمنطق أيضا مما يلقى فى مساجد العبادة صدرا من بداية الدولة الاسلامية . ثم عكف طلابها على بيوت أساتذتها أو على المدارس التى كانت تفتح للدرس دون العبادة ، ولا سيما المدارس المقصورة على تخريج الأطباء .

ولا شك أن هذا البرنامج التعليمى ، التام قد صاحب الدولة العربية الى العهد الأخير الذى أدركناه . ولا تزال بقاياه مشهودة فى مصر وفى غيرها من البلاد الاسلامية . فلم تزل الحلقات والمكاتب

المعروفة عندنا باسم « الكتاتيب » هى أماكن التعليم التى يؤمها الكبار والصغار منذ أوائل الدولة العربية الى عهد قريب .

لكن الحلقات والمكاتب لم تستأثر بالتعليم كله فى عصور الدولة العربية ولاسيما عصورها الذهبية ، وانما كانت هى مثابة « التعليم العام » المباح لكل من يحضره ويواصل حضوره ، ووراء ذلك تعليم لا يباح لكل طالب ، ولا يحضره غير أهله فى رأى أساتذته القادرين عليه وهذا التعليم المضنون به على غير أهله قسمان : قسم يتصل بحكمة الدين وقسم يتصل بالحكمة على الاطلاق ، أو قسم المتصوفة وعلماء الكلام وقسم الفلاسفة وعلماء الطبيعيات والرياضيات .

فالغزالى ، وهو قدوة الأساتذة الأولين ، يرى أن يقصر العلم فى مسائل الكلام العويصة على صفوة المتعلمين الأطهار درجات بعد درجات ، أو كما قال فى كتابه إلجام العوام عن علم الكلام : « فقد خلق الناس اشتاتا متفاوتين كمعادن الذهب والفضة وسائر الجواهر فانظر الى تفاوتها وتباعد ما بينها صورة ولونا وخاصية ونفاسة ، فكذلك القلوب معادن لسائر جواهر المعارف ، فبعضها معدن النبوة والولاية ومعرفة الله تعالى ، وبعضها معدن الشهوات البهيمية والأخلاق الشيطانية . . » .

والغالب فى المتصوفة أنهم كانوا يمتحنون قدرة المريد على الوصول

بما ينشده من معرفة « السر الأعظم » الذى يتوق اليه جميع الباحثين عن الحقيقة . فما دام مقصده منه قوة التسلط أو القدرة على تسخير العناصر المادية والاتيان بالخوارق فهو بعيد من مرتبة الوصول ، فاذا أنست نفسه الى سعادة المعرفة لغير مأرب من هذه المآرب الجسدية واكتفى من البحث بأن يعرف ليعرف . وأن يخلص الى الحقيقة ليسعد بالخلوص اليها . فهوقد استغنى عن القيادة الروحية وبلغ الغاية التى لايفاجأ فيها بانكار تلك المطالب أو انكار السعى اليها ويومئذ لا يسوءه أن يعلم كما علم الغزالى « إن الخلائق وان اتسعت معرفتهم وغزر علمهم فاذا أضيف ذلك الى علم الله سبحانه وتعالى فما أوتوا من العلم إلا قليلا . . »

وحجر الغزالى على التعليم بهذه القيود لايحسب من الحجر الدينى على العقول كما وهم بعض المتأخرين . لأن مذهبه فى ذلك مذهب العارفين بعقول الناس من قديم الزمن وفى طليعتهم سقراط أستاذ أفلاطون ومن بعده أرسطو وسائر حكام اليونان . فقد كان سقراط ينكر الكتاب لأنه علم مفتوح لمن يدرك ولا يدرك . ويؤثر التعليم بالاختصاص والانتقاء والاستبراء . ولم يكن بين الغزالى وفلاسفة الاسلام فرق يذكر فى جوهر هذا المذهب . لأن اولئك الفلاسفة كانوا يدينون بقصر العلم على أهله وتخصيصه بما هو قادر عليه ونحسبهم

على صواب فيما اعتقدوه من « إلجام العوام » عن هذا المقام ، ولو كانت هناك وسيلة لتمييز العامى الذى سيظل عاميا طول حياته لوجب أن يمتنع العلم عن العوام ولا يسمح لهم منه إلا بما هم مضطرون اليه قادرون على فهمه ، لكن المحظور فى هذه المسألة آت من صعوبة التمييز بين العامى بحكم البيئة والعامى بحكم الطبيعة التى لا تقبل التبديل ، ورب رجل من سواد الناس يفتح له باب العلم فلا يقف فيـــه دون أقصى الغايات .

وإذا كان الغزالى قدوة الأساتذة الأولين ، وهم المتصوفة وعلماء الكلام ، فلعل الفارابى هو قدوة الأساتذة الآخرين ، وهم الفلاسفة وعلماء الطبيعيات والرياضيات ، وهو كالغزالى فى تحريمه العلم الرفيع على سفلة الناس ، وقد خطر له أن أرسطو كان يتعمد « الاغماض » تعمدا لثلاثة أغراض ، وهى استبراء طبيعة المتعلم هل يصلح للتعليم أو لا يصلح ، وأن تبذل الفلسفة لمن يستحقها لا لجميع الناس ، وأن يروض الفكر بالتعب فى الطلب .

وقد استوجب الفارابى على طالب العلم الرفيع أو الحكمة الخالصة دروسا عددها ، فيما ينبغى أن يقدم قبل تعلم الفلسفة ، ومنها الهندسة والطبائع والمنطق ورياضة النفس على حب الحق والأنفة من الشهوات ومتى استعد بهذه العدة تهيأ له أن يبلغ « الغاية التى يقصد اليها فى تعلم

الفلسفة . وهى معرفة الخالق تعالى وأنه واحد غير متحرك وأنه العلة الفاعلة لجميع الأشياء . وأنه المرتب لهذا العالم بجوده وحكمه وعدله وأما الأعمال التى يعملها الفيلسوف فهى التشبه بالخالق بمقدار طاقة الانسان ،

ولسنا نستوعب « برنامج التعليم » كله عند العرب بما قدمناه على وجه الاجمال .

فى هذا البرنامج المطلق برنامج « مخصوص » لأنه مقيد بمطالب القصور والبيوتات من أعلى تلك المطالب إلى أدناها ، وأقرب ما نشبهه به فى عصرنا الحاضر هو « الدرس الخصوصى » الذى يستأثر به العلية ومن هم منهم فى حكم الحاشية والأعوان .

ويدخل فى هذا البرنامج تعليم الملوك والأمراء والكبراء ، وهو فن من التعليم له شروط ومؤهلات جمع زبدتها شهاب الدين بن محمد ابن أبى الربيع فى الكتاب الذى ألفه للخليفة المعتصم بالله باسم «سلوك المالك فى تدبير الممالك » وجاء فيه بما ينبغى أن يتعلمه الرئيس لسياسة نفسه وسياسة الشرفاء والرعية والعبيد ، وقسم العمل على ثلاثة أنحاء وهى : « سياسة الانسان نفسه وبدنه ، أى سيرته فى نفسه بالأعمال الصالحة . وسياسة المنزل أى سيرته مع أهله وماله وولده وعبيده وسياسة أهل نوعه أى سيرته التى لايستغنى عنها مادام حيا . . . ، ثم

أحصى فيه الصفات التى تطلب فى الوزير مثلا ، وهى : « العلم بالدين وحسن العقل والحلم وحلاوة اللسان وبلاغة القلم وكرم الأخلاق وسهولة الحجاب واعتقاد الخير والصلاح وقلة اللهو وكتمان السر وصحة الجسم وجودة التفكير . . . »

وقد كثر عدد المعلمين الذين يستجيبون مطالب القصور والبيوتات من أعلاها إلى أدناها ، فكان منهم من يعلمون الجوارى والوصفاء ويخرجونهم فى فنون الأدب والموسيقى والمحاضرة وتربية الأبناء ، ويغالون بأثمانهم على قدر حظهم من العلم والتدريب . وكان منهم معلمو الصناعات البيتية والدقائق الفنية التى لا تزام فى غير القصور والبيوتات .

وأهم من هؤلاء جميعا أولئك المعلمون الذين يستدعون لتخريج أبناء السراة فى كل ضرب من ضروب المعرفة التى تكمل بها مروءة الشرفاء ، وكان لهؤلاء المعلمين فن يشبه فن التربية الحديثة والنظم « البداجوجية » فيما يساس به الطفل وما يباح له وما يحرم عليه وما يشجع به على التعلم ويبسط له بعد إيجاز أو يفصل له بعد اقتضاب ويبدو لنا أن ما كتب ، كان لهذا الطراز من المعلمين « الخصوصيين » لأن طبقة المعلمين فى المكاتب الشعبية لم ترتفع إلى هذا المقام من التخير والاصطفاء ، ولأن العلماء أصحاب الحلقات لم يكن من شأنهم تعليم الصبيان

مهمة التعليم الجـــامعى

وقد نشرنا فى مجلة الرساله فى عام ١٩٤١ مقالا عن مهمة التعليم الجامعى بمناسبة انشاء جامعة فاروق الأول فى الأسكندرية جاء فيه مايـــلى :

لعل من أمارات التوفيق أن يتاح لمصر إنشاء جامعة جديدة شاملة مختلف الكليات ، وهى جامعة فاروق الأول فى الاسكندرية التى ستفتتح فى العام الدراسى الجامعى القريب . فقد حقق هذا أمنية طالما جاشت فى الصدور ، وسيكون من علائم التوفيق أيضا أن يتاح لأبناء الصعيد جامعة فى عاصمته « اسيوط » ، وأن تتوالى بعدئذ الجامعات فتصبح مصر موطنا صادقا للثقافة فى الشرق الأوسط ، وتستعيد مصر حضارتها العلمية القديمة ؛ حيث تخرج الاساتذة للعالم الشرقى الغربى وان شئت للعالم كله .

غير ان انشاء الجامعات لايحقق وحده هذه الامانى . متى كان

---

(١) ثم افتتاحها بالفعل بعدئذ

الأمر مقصوراً على الصور والهياكل والأشكال . كما أن إنشاء البرلمانات وإقامة الدساتير ذات المواد الكثيرة ، لايحقق بذاته المعنى النيابى التمثيلى المنشود ، مهما تتألف هذه البرلمانات من مجالس الشيوخ والنواب ، بما تضمه من مكاتب ولجان . ومهما يكن للنواب من الحق فى تقديم الأسئلة وتوجيه الاستجوابات وحق طرح الثقة ، مادام أن النواب لم يستطيعوا أو لايستطيعون بالفعل : لابعمل الدستور ، أن يسقطوا الوزارات ، بل ان من الوزارات مايستطيع أن يسقط المجالس النيابية ، ويلغى الدساتير ، ويستبيح كل ماحرمته

« ٥ »

ليس من شك فى أن كل أمة تشغل بالعرض عن الجوهر ، ويصرفها الشكل عن الموضوع — لن تظفر بما تبتغى من الأغراض إذ أن هذه الأغراض ستظل أمنية وخيالا بديعاً وحلماً جذابا

من أجل هذا ، نرجو أن يتاح لجامعة الاسكندرية مالم تتجه الملابسات لجامعة القاهرة . فإن هذه الجامعة لاتزال جامعة شعبية أو فى حقيقتها مجموعا من المدارس العالية ، غايتها عقدامتحانات وتوزيع شهادات ، وانصراف حملها بعدئذ إلى الوظيفة .

لم يتهيأ لجامعة القاهرة إلى اليوم أن ينصرف أساتذتها وطلبتها إلى البحث العلمى كغاية أولى للجامعة . ذلك أن نشأة الجامعة الأولى

بجمع المدارس العالية التى كانت قائمة يومئذ تحت اسم الجامعة والوقت السياسى . والتيار الحزبى الذى قامت فيه الجامعة . وفترة التحول من السيطرة الأجنبية على التعليم إلى الحكم التعليمى الوطنى . وتشبع الكثيرين من رجال الجامعة وطلبتها بالطموح السياسى . والحفاوة بالأعمال الإدارية التى تطغى على القائمين بها لونا من الجاه الحكومى كل هذا قد صرف الأذهان كثيراً عن التجرد للبحث العلمى دون سواه من الغايات المادية والسياسية

وحسبنا أن نشير إلى ذلك العدد الكبير من رجال الجامعة الذين غادروا مقاعد التدريس الى مناصب الدولة الأخرى . وتطلع من خلفوهم الى هذه المناصب ذاتها

فإذا استطاعت الجامعة الوليدة - جامعة الاسكندرية الجديدة أن تحقق المعنى الجامعى : بأن يقف أساتذتها وطلبتها جهدهم على المساهمة فى البحوث العلمية . وأن يشاركوا فى المجهود الذى تقوم به الجامعات الأخرى . حققنا الغاية من انشاء الجامعة . على أن ندع لجامعة القاهرة مهمتها الشعبية من حيث تخريج حملة شهادات للتوظف . تاركين للزمان أن يهيء لها تحولا صادقا الى المعنى الجامعى الحقيقى

كان المعنى الجامعى متحققاً فى الأزهر فى أشد الأزمات التى نزلت به . ذلك أنه كان هناك شيوخ وطلبة تجردوا عن المادة والجاه . للعلم

الأزهرى ، يدرسونه فى الأزهر والمسجد والدار وعلى قارعة الطريق وفى الأفراح والمآتم : كان الشيخ يتحدث إلى الناس فى كل مكان جاعلا علمه شائعاً لايبغى من وراء ذلك جزاء أو شكراً . أما إذا كان شيوخ الأزهر لم يوفقوا يومئذ إلى المساهمة العامة فى البحث العلمى الإنسانى فإن مرجع هذا إلى الأحوال السياسية وفساد الحكم والحكام وعدم التشجيع .

فالتجرد للعلم والانصراف عن المادة أو توجيهها لخدمة البحث العلمى — هو العنصر الأولى للجامعة لكى لاتكون اسماً أو رمزاً لايدل على حقيقة

نريد علماء لانشغلهم بالتقليب ولايشغلون أنفسهم بالدرجات والرتب والأوسمة واتخاذ التدريس وسيلة إلى الجاه الحكومى على صورة من الصور . علماء يحج الناس من مختلف البقاع للتشرف بالاستماع اليهم والمباهاة بلقائهم واتخاذ مؤلفاتهم مصابيح للاهتداء ومراجع للاقتداء .

وعندى أن هذا سيكون ميسورا لجامعة الاسكندرية أكثر من جامعة القاهرة ، ذلك أن القاهرة ، حيث تتجمع فيها أندية السياسة والصحافة والأحزاب والألقاب وألوان الجاه ، لن تفتأ تجذب إلى جاهها رجال الجامعة والتعليم . أما الاسكندرية فهى بمنجى عن هذا

المدارس العالية على العموم على اربع كليات أو أقسام : العلوم عامة البناء ، الميكانيكا ، والمواد الخام .

ويشتمل برنامج القسم العام للعلوم على المواد الآتية : العلوم الطبيعية الطبيعة الفنية والعملية ، الرياضة البحتة والتطبيقية ، العلوم الاقتصادية — وفى بعض المعاهد تزاد عليها دروس فى الثقافة العامة والتاريخ وتاريخ الفن والبيداجوجيا الخ .

ويتفرع قسم البناء الى فرعين : العمارة والتعليم الفنى . ويتفرع قسم الميكانيكا الى فرعين : الأول للسفن والثانى للكهرباء الفنية — وبعض هذه المعاهد يعد طلبته لامتحانات خاصة مثل بناء البواخر والسفن (برلين) وصنع الورق والغازات .

وتدرس فى قسم المواد الخام ، الكيمياء والمعادن . وفى بعض الاحوال تدرس موضوعات خاصة . مثل الكيمياء فى علاقتها بالمنسوجات (اكس لاشابيل — درسد — ستو تجارد) وصناعة الورق (اكس لاشابيل - درسد) والصيدلة (ستو تجارد — دارمستاد — برونسويك) والكهرباء الكيمائية والكيمياء فى علاقاتها بالسلولوز (دارمستاد) والزراعة (برونسويك) .

ج — مدارس الطب البيطرى

توجد فى المانيا مدرستان للطب البيطرى احداهما فى برلين والأخرى

مفروغاً منها . وكذلك الطفل الذى يمثل ساعى البريد ، أو أخوه الأكبر الذى يمثل فى لعبه آخر شريط سينمائى رآه ، يستكشف بالطريقة نفسها مواقف اجتماعية ، ويجرب الشعور الذى يختلج فى نفوس من يقفونها . وليس مثل هذا الطفل ، ولا الطفل الذى يقوم بالحفر بحاجة إلى اى نوع من أنواع الارغام ندفعه به الى النشاط ، والسبب فى ذلك أن الطفل لديه من الرغبة فى السيطرة على عالم الأشياء والناس مثل ما للراشد ، وهو يتأذى مثله إذا أدى به جهله الى الشعور بالنقص أو الوقوع فى الحيرة .

وهذه الحقائق البسيطة تكشف لرجال التربية عن طريقة التعلم التى ينبغى اتباعها من جهة ، وعن الموضوعات التى ينبغى أن يتألف منها منهج الدراسة من جهة أخرى . فقد صار جلياً أن الطريقة القديمة التى تقضى بأن تختار المدرس موضوع الدرس ، وأن ينحصر عمل التلميذ فى الانصات — أو عدم الانصات فى بعض الأحيان — هذه الطريقة ليس من المستطاع السير عليها الا اذا تأيدت باستخدام سلطة المعلم . أما إذا أراد المعلم — تمشيا مع روح النظام الجديد — أن يراعى وجهة نظر الطفل ، فإن الاحتفاظ بتلك الطريقة يصبح معتذراً .

ان الطفل يهتم اهتماماً حقيقياً ببعض المواقف المثيرة التى تعرض له فى العالم خارج المدرسة ، فينبغى أن يشتمل المنهج عليها . ولكن هذه

المواقف تختلف باختلاف الأطفال واختلاف بيئاتهم ، فالطفل الريفي يستخرج دودة من الأرض ، بينما الطفل المدني يرى مضخة للحريق وإذن يجب أن يختلف المنهج لمختلف الأطفال . ولكن كيف يمكن أن نضع منهجاً مادمت لاتستطيع أن تعرف سلفاً ماهي الحوادث المفاجئة التي قد تثير اهتمام التلاميذ إلى حد يصبح لامفر معه من تناولها بالمدرسة — كزيارة « سرك » المدينة أو انهيار صف من المنازل ؟ والجواب على هذا أنه لايتحتم وضع منهج لدراسة كهذه مقدما ، بل يكفي تسجيل ما درس بعد الفراغ من دراسته .

هذا فيما يتعلق بموضوعات الدراسة ، أما فيما يتعلق بالطريقة فالطفل يلذ له النشاط في اللعب . وكثيراً مايكون ميله متجهاً إلى النشاط الجسمي ، خصوصا إذا كان اللعب متصلا بالمواد والآلات ، لكنه بصرف النظر عن ذلك ، ينشط دائماً في لعبه نشاطاً عقليا . فتراه يتساءل متى يصل الجحر الى باطن الأرض ؟ ولم ينهال الرمل في داخله ؟ ولم يأخذ الجحر هذا الشكل الخاص ، ولا يأخذ شكلا غيره ؟ . . وهكذا ينتقل من سؤال الى سؤال دون انقطاع . أما إذا بدأت بأعطائه درسا على « الأجحار » فان هذه الأسئلة لن تتوارد على ذهنه ، بل إنه سوف يمل دراسة الأجحار كما يمل دراسة التاريخ . فالطريقة الطبيعية اذن

أن تدع الطفل يجرب فى مواقف حقيقية بقدر ماتسمح به الظروف ، غرفة الدراسة ، وأن تشكل تدريسك وفقا لتطور تجاربه .

والآن لننظر كيف يمكن تنفيذ هذا عمليا . وجدت معلمة حاذقة اشتغلت بالتعليم عشر سنوات ، أن معظم تلاميذها كانوا مشتركين فى مجلة من مجلات الأطفال . وكانوا يكثرون من الاشارة اليها فى أثناء الدروس والاستعانة بحقائقها فى مناقشاتهم ، كما كانوا يقرءون فيها سرا فى أوقات الدراسة . وكان من الواضح أنه مادامت هذه المجلة مركز اهتمام الأطفال ، فقد وجب أن تكون مركزا لنشاط الفصل ؛ ولذلك أفسحت المعلمة المجال لدراستها فى الحصص ، وصارت تضع للاطفال أسئلة عما فيها ، وتطالبهم بأن يبينوا لها مزاياها والخطة المتبعة فى تحريرها ، ومن هنا نشأت فكرة تحرير صحيفة للفصل ، ولكن كل طفل فضل أن يحرر لنفسه صحيفة خاصة ، وأصر على ذلك .

ودارت مناقشة الفصل وقتا ما حول الناحية التى يرغب كل طفل فى أن تكون بارزة فى صحيفته . فمثلا رأت « دوروثى » أنها تجيد الكتابة حول مباريات الفصول فى كرة الشبكة ؛ وقالت « ايلين » انها ستخصص عددا من صحيفتها لأسبوع الطفل ، أما « فيرا » فقد قالت ان فى حديقة منزلها وردة للرياح ، وانها لذلك ستكتب عن مجموعة أخبار الجو . وقد أعجبت هذه الفكرة سائر الأطفال ، فشرعت جماعة منهم فى عمل مقياس

للمطر ووردة للرياح واعداد خريطة لتسجيل حالة الجو عليها ، حتى يمكن إبلاغ ذلك الى جميع الصحف . ولم يقتصر كل طفل على التحرير فى صحيفته الخاصة ، بل صاروا يكتبون لصحف غيرهم . ويأخذون على ذلك أجورا حددت فئاتها ، وكانت هـذه الأجور وغيرها من النفقات تقيد فى دفاتر خاصة . فتـدرب بذلك كل طفل على أعمال الحسابات وامساك الدفاتر وعمل بيانات الايراد والمصروف . وقد كانت كتابة الصحف فى أول الأمر سيئة . فأشير على الأطفال باستخدام نوع من أجود من الأقـلام . ثم تدربوا على الكتابة بالحروف المنفصلة (Script) وأعقبت ذلك دراسة الاعلانات العادية والمصورة ، وقد فاجأت « دورين » الفصل يوما بتأليف قصيدة . ومنذ ذلك الحين تدفق سيل الشعر . ودرس الأطفال الأوزان والقوافى لتحسين شعرهم .

وقد ابتكرت « دوريس » فى صحيفتها فكرة « الرسائل الى المحرر » وبدأتها بخطاب قوى هذا مطلعه : « سيدتى العزيزة : انى لأرجو أن تعنى بالنظر فى مسألة الواجبات المنزلية . . . » . وتبعت ذلك « فيرا » بخطاب تسأل فيه عن نصـائح فى التجميل . وتلا ذلك فتح أبواب جديدة لنقد الكتب . وفلاحة البساتين . وملاحظات عن الطبيعة والحوادث السياسية الجارية . وقد تعاقبت هذه الأبواب فى سرعة .

وأدى « أسبوع الطفل » الذى نفذته « الأمين » الى مراجعة كل كتب الصحة التى فى مكتبة الفصل .

وعلى مر الأيام طرأت أسئلة أخرى . اذ وجدت المعلمة يوما ما قشرة رقيقة من الخشب فى نسيج ورقة صحيفة من الصحف فدفعهم هذا الى البحث عن كيفية صنع الورق ومن أين يجىء ؟ وبدءوا بدراسة صناعة الورق فى كندا . فاندفع جماعات منهم الى الكتب لدراسة عدد من المسائل التى شغلت كل تفكيرهم . مثل : كيف يعيش قطاع الخشب ؟ وكيف ينقل الخشب بعد قطعة ؟ وكيف يسير العمل فى مصانع نشره ؟ وماهى البلاد الأخرى التى يوجد بها ؟ . .

وقد دى ذلك الى سؤال آخـــر . هو : كيف كان الناس يكتبون الرسائل قبل صناعة الورق ؟ وهكذا انتقل الفصل خطوات عديدة فى ثنايا التاريخ . فدرست مجموعات من التلاميذ الطرق الفطرية لكتابة الرسائل وأعدت مكتبة فى ركن من الغرفة تحتوى على ما فى متناولهم من الكتب والصور . ودونت مذكرات . وصنعت نماذج لكل شكل من أشكال الكتابة القديمة على المواد الملائمة له . وبعد ذلك أعطيت نتيجة هذا الاستقصاء للفصل على صورة محاضرات قصيرة وكانت الخطوة التالية دراسة نظام البريد ووسائل المواصلات الحديثة ولم تكن المواصلات الدولية بعيدة عن البحث .

إن المحافظين على القديم منا لن يسعهم إلا أن يتساءلوا بإزاء هذا كله : هل تتسع هذه الطريقة لاعطاء الطفل معلومات فى التاريخ أو الجغرافيا وإن لم يكن فى المواقف التى يلقاها فى بيئته مايدفعه الى البحث عنها ؟ والجواب أن هذا ممكن ، وإنى أسوق الأمثلة الآتية على (١) إمكانه : فقد رأيت فى الأسابيع الأخيرة فصلا مكونا من بنات فى سن الثانية عشرة يدرسن سجلات مدينة لندن فى سنى الوباء والحريق وذلك نتيجة لشغفهن بمذكرات «مستر بيبس» « Mr Pepys » ورغبتهن فى عمل يوميات مشابهة ليومياته . كما رأيت جماعة أخرى فى التاسعة من العمل مشغولة بعمل نموذج من الخشب والورق المقوى لشارع فى القرون الوسطى . بمنازله ومافيه من وسائل النقل ، وقد وضعت فيه نماذج تمثل الناس فى أزياء ذلك العصر ، وكل ذلك كان منقولا فى دقة تامة من الصور . وإنى لأذكر كذلك فصلا يتألف من تلاميذ فى الحادية عشرة من عمرهم صنعوا فى العام الماضى نموذجا لنظام الرى فى حقل هندى . كما أنه عرضت على حديثا خريطة للعالم صنعها تلاميذ فصل ما من الخشب ، ودلوا على أماكن الموانىء الجوية والبحرية الرئيسية فيها بمصابيح صغيرة تضاء بالكهرباء .

هذه أمثلة قليلة ، جادت على بها ذاكرتى ، من كثير من وجوه النشاط التى تنصب على المواد الدراسية مباشرة . وإنى لا أشك فى أن

---

(١) مجلة العصر الحديث

الاهتمام بها بدأ فى أول الأمر بإيحاء من المعلمة ، و مع ذلك فقد تقبلها الاطفال فى رضى وحماسة فأثار تنفيذها نشاطهم من الناحيتين العقلية والجسمية . وقد سمح لهم بأن يقوموا بتجـــارب على المواد اللازمة لتحقيق أغراضهم ، كما أن التنفيذ أتاح لهم الفرصة كى يدرسوا ويكتبوا ويتحـــدثوا ويرسموا الخطط منقسمين جماعات متعاونة . وما كانوا يدركون قط إذا كان عملهم يعد درساً فى اللغة الانجليزية أم فى التاريخ أم الجغرافيا ، ذلك أن النشاط أزال الحواجز بين المواد فى عقل الطفل فلم يعد يرى إلا أن كل عمل من أعمال الفصل كان خطوة معقولة فى سبيل إتمام مشروعهم ، وكان له فى ذهنه معنى ، لأن له غرضاً .

***

لقد أثبت علم النفس الحديث — وأيدته تجارب المعلمين فى ذلك — أن بالأطفال حاجة نفسية لأن يتعلموا ، وأن التعليم بالنسبة للطفل لا يخرج عن كونه طريقة خاصة تمكنه من السيطرة على بيئته . فلماذا إذن نجد من الاطفال من يأبون أن يتعلموا ؟ يرجع ذلك أولا إلى أن الحقائق التى كنا نريد أن يتعلمها الطفل فى الماضى لم يكن لها اتصال ظاهر ببيئته ، ومن ثم لم يكن يرى فيها وسيلة للسيطرة فى أية صورة من صورها . ثم يرجع إلى أن التعـــليم الجمعى (فى فصول يتراوح عدد تلاميذها بين الثلاثين والخمسين) لم يكن بالنسبة للتلاميذ الذين

لم يوهبوا سرعة الفهم سبيلا إلى القوة . بل كان أداة تبعث فى نفوسهم شعوراً مفزعا بالعجز والضعف . كانت عملية التعلم أشبه بالكابوس يثقل صدورهم لعجزهم عن التقدم ، وكانت فى النهاية ، لقلة مايلاقونه من عناية فردية . تسلمهم الى الجهل والانحراف .

ولقد عرض فى الشهر الماضى أربعة أولاد من هذا الطراز كانوا فى العاشرة من العمر . ولكنهم لم يكونوا يستطيعون قراءة سطر واحد . وقد بلغ اليأس من أحدهم أن قال لى : « إنك لاتستطيعين أن تعلمى كل الناس القراءة أيتها الآنسة » ، فوافقته على ذلك فى أول الأمر . وكان اثنان منهم ممن عرضت حالاتهم على المحاكم . وولد أحدهم من المشغوفين بسباق الخيل . وكانوا جميعاً يعيشون فى أحياء كلها بؤس وشقاء .

قلت لهم ان القراءة مفيدة فى المراهنة على الخيل . وإن الحوادث المثيرة لاتسجل إلا فى الصحف . فتجلى فى نظرتهم الى عندئذ احترام لم ألحظه من قبل . وانتهى بنا الأمر الى أن نشتغل بجد مدة عشرين دقيقة . تعلم فيها كل منهم قراءة فقرة صغيرة من كتاب . وكان ثلاثة منهم يتلون معظم مايقولونه من الذاكرة . ولكنهم كانوا يحسبون انهم يطالعون . وفى نهاية هذه المدة كدت لا أعرف أولئك الصغار لفرط مابدا عليهم من تغيير . وحين خاطبنى أشد الاربعة بؤسا قائلا :

هذا غريب ! يظهر أن تعلم القراءة يدخل السعادة الى نفس الانسان متى شعرت أن الفوز قد تم ، وأن التقدم أصبح محققا . ويرجع التغير الذى طرأ عليهم إلى أنهم قد خصوا بالعناية الفردية مدة عشرين دقيقة ، وأن مطالبتهم ببذل شيء من المجهود قد بنيت على سبب يفهمونه ، وأخيراً — وهذا أهم الأسباب — إلى أنهم قد أدركوا بعض النجاح وشعروا بلذته . ولم يكن لدى شك فى أن كل هذا ستكون له نتيجته .

إن المعلمين قد أخذوا يكسبون خبرة فى تنظيم أعمالهم على صورة تسمح بتفرغهم للعناية بالأفراد والجماعات الصغيرة من تلاميذهم ، وذلك سائر بقية التلاميذ ليدرسوا بأنفسهم . وهذه الطريقة لا يتم نجاحها إلا إذا صغرت الفصول ، وخفت الأعمال الاضافية التى تستغرق كثيرا من جهد المعلم ووقته ، بالاستغناء عما يمكن الاستغناء عنه من الأعمال الكتابية مثلا .

التنظيم والاعداد المادى

من الواضح أن أساليب كالتى بسطناها ستقلب جداول الدراسة المألوفة رأساً على عقب . ولكن الجدول أيضاً يجب أن يخضع لأحدث

المعلومات عن العمليات العقلية ، فما من طفل مشغول باقامة مسرح صغير يرضى أن يلقى آلاته بعد مضى أربعين دقيقة من بدء العمل ، ومن الصعب أن تخرج الأطفال من غرفة الدراسة للفسحة فى مثل هذه الحالة . كذلك قد يقوم الأطفال بدراسات فى الجغرافيا والتاريخ ومشاهد الطبيعة فى وقت واحد ، فى فصل واحد ، وفى مشروع واحد وعلى هذا لا يمكن فصل بعض هذه المواد عن بعض . على أن اليوم المدرسى يجب أن يتناوله بالرغم من هذا ، شىء من التقسيم ، إذ أن تهيئة الطفل لأنواع النشاط المغرية فى الفصل ، وللحياة الاجتماعية المستقبلة يتطلب تدريبه على بعض العمليات الخاصة ، حتى يتقنها ويصير قادرا على القيام بها بطريقة آلية . ومن ذلك العمليات الحسابية . والقراءة والكتابة ، فهذه المواد لابد أن يفرد لها وقت خاص فى الجدول . كما أن المواد التى لا تجد لها مكاناً فى أنواع النشاط التى يقوم بها الأطفال فى وقت معين ، يجب أن تخصص لها من آن لآخر بعض الحصص حتى يكون المنهج متزنا . كذلك يحتاج الطفل الى ممارسة الرياضة البدنية والموسيقى والقراءة التى يقصد منها الى التسلية . عدا ذلك ، فإن الجدول ينبغى أن يحتوى على فترات طويلة تخصص لأنواع النشاط وتختلف تسميتها باختلاف أذواق المدرسين . وإنى أعرف مدرسة أسماها حصص الكشف ، وقد يكون الكشف تاريخيا . أو جغرافيا

أو طبيعيا ، أو مجرد تنفيذ لفكرة نشأت من اقتراحات الأطفال وأخذوا يسبرون غورها حتى يصلوا منها الى القرار .

ومن المسائل التى نواجهها إذا أردنا الأخذ بأساليب التربية الحديثة ضرورة توافر الفضاء فى غرف الدراسة وتزويدها بما يلزمها من الخامات والأدوات . وكل فصل يجب أن يكون حجرة للأشغال . فلا يجدى كثيراً أن يكون فى المدرسة حجرة واحدة للأشغال أو النشاط . وينبغى أن يكون لكل طفل كرسى ومنضد يمكن زحزحتهما فى سرعة عند الحاجة ، لايجاد الفضاء الكافى للتمثيل . كما أن الأثاث يجب أن يكون متحركا حتى يستطيع جماعة من الأطفال أن يقتربوا بعضهم من بعض للمناقشة . ويجب أن يكون بالفصل مائدة لعرض ما تم أو ما قارب التمام من أعمال التلاميذ . كما يلزم أن يكون به مخزن للخامات والأدوات إنى أقول « يجب » و « يلزم » ، ولكن المعلمين فى الواقع يأتون بالمعجزات من غير أن يتوافر لهم شىء من هذا . متى تحلوا بالصبر والأناة . والحقيقة أنه ما من شىء تتوقف عليه هذه المشروعات ويتعذر السير فيها من غيره متى وجدت جماعة من الأطفال وقدر من فضلات المواد الأولية ومعلم له وجهة نظر خاصة . أما أخطر الأشياء عليها — على الأقل مع أطفال لم يتجاوزوا العاشرة — فهم المعلمون الاخصائيون الذين لايعلم كل منهم الا مادة واحدة . فالتخصص فى

التعليم يجب ألا يكون له وجود الى هذه السن . بل الى مابعد ذلك وان هذا الأمر على جانب كبير من الأهمية .

ومن المسائل الأخرى مسألة الكتب المدرسية للأطفال . فعهد الكتب القديمة التى تحتوى على استعراض عام لمادة معينة قد انقضى . ولم يعد من المرغوب فيه أن يجمع كل مايحتاج اليه فصل معين من مادة التاريخ أو الجغرافيا فى كتاب واحد . ان أمامى الآن مجموعة من رسائل صغيرة مكتوبة بخط اليد . وهى من عمل زميلة أعدتها للاستعمال فى الدراسة ولم تطبعها بعد . انها صغيرة . وموضحة برسوم حقيقية ولن يتجاوز ثمن الواحدة منها بعد طبعها تسعة بنسات أوشلنا . وهى لفصل يدرس الحياة الاجتماعية فى القرون الوسطى . وسن الاطفال فيه العاشرة . أما عنوانات الرسائل فهى :

١ — الحروف فى المدينة ٢ — الحرف فى الريف ٣ — منازل القرون الوسطى ٤ — الأزياء ٥ — الطعام والولائم ٦ — الموالد وحفلات الاستعراض .

وبعد فمن الواضح أن كثيرا من المشكلات التى كشف عنها علم النفس الحديث لم نوردها هنا فتعليم الفن والأدب والإنشاء الابتكارى مثلا قد تقدمت كثيرا فى السنين العشر الأخيرة . وقد

اتخذنا موقفا جديدا بازاء بعض المسائل الشائكة مثل تعليم النحو والمحادثة . ونتجت عن ذلك تعديلات فى طرق التعليم لاتحصى .

ثم ان كثيرا من التغييرات التى أشرنا اليها لاتزال فى بدايتها ، ولكن النزعة التجريبية فى التعليم قد حلت فى كل مكان وستكون لنا من نتائجها موضوعات شائقة للدراسة فى المستقبل .

التعليم الجامعى فى المانيا

من المميزات العامة للتعليم الجامعى والعالى فى المانيا أن هذا النوع من التعليم أعلى درجات الدراسة ويعطى فى المدارس العليا . وتتخصص هذه المعاهد فى دراسة العلم البحت والفنون الجميلة وفى الحصول على المعلومات الفنية . وهى تعد الطلبة للعمل المستقبل فى العلم والفن أو لمزاولة أية مهنة . وتعترف الجامعات والمدارس الكبرى بمبدأ حرية اختيار المواد وكيفية دراستها ، والطلبة الالمان والاجانب (سواء كانوا من الذكور أو الاناث) الذين يحضرون الدروس فى هذه المدارس العالية يتمتعون بالمزايا ويخضعون للواجبات

والقرارات الخاصة باختيار موضوع أو بتوجيه الدراسة نحو وجهة معينة تترك للطالب نفسه : وهو يختار جامعته أو مدرسته ويغيرها كلما أراد وهو يعمل تحت اشراف أساتذة مختلفين ويزور معاهد متعددة للحصول على معرفة عامة فى مختلف الموضوعات وليتمرن على سير الدراسة فى أنواع المدارس المختلفة وليس حضوره لهذه الدروس خاضعا لأية رقابة .

إلا أن المدارس البيداجوجية تختلف فى ذلك . فالدراسة فيها سنتين والبرنامج محدد .

وتختلف أساليب الدراسة العليا : فمن دروس ومحاضرات الى تمارين عملية ومن عمل اجمالى الى درس شخصى . وتنتهى الدراسة بامتحان تقدم فيه رسالة (م م ي) أو بامتحان يمنح فيه دبلوم (للمهندسين والمهندسين المعماريين والكيميائيين والتجار الذين يدرسون (الاقتصاد السياسى والغابات) أو بامتحانات لبعض الوظائف الحكومية (قضاة . أساتذة فى مدارس ثانوية . أطباء . صيدلين)

١ ــ المعاهد المختلفة للتعليم العالى ، ٢ ــ الجامعات وتمثل الجامعات أقدم نوع من أنواع معاهد التعليم العالى . والغرض منها المساعدة فى تقدم العلوم وذلك بالقيام بالابحاث العلمية ورفع مستوى الثقافة الفردية . وهى ترمى أيضا الى أعداد الشبان للمهن التى تكون

فيها الثقافة العلمية ضرورية جدا أو على الأقل نافعة جدا .

وتوجد فى المانيا ٢٣ جامعة موزعة كما يأتى : بروسيا — برلين . بون . برسلو . فرنكفورت . ماين . جولتنجن . جريسفوالد . ماربورج . مونستر . هال بال . كيل . كولونى . كونجسبرج بافيير — ارلاوزن . مونيخ . ورزبورج . وورتمبرج — توبنجن — ساكس — ليبزيج — باد — فريبورج . هيدلبرج — شورنز — يينا هيس . جيسين — مكلمبورج — رستوك — همبورج

والقاعدة العامة ان الجامعات الالمانية تجمع كل فروع المعرفة الانسانية فى أربع كليات : الفقه . الحقوق . الفلسفة . الطب ويدرس فى كلية الفلسفة : الفلسفة . الفقه . التاريخ . ويزاد عليها فى بعض الأحيان العلوم الرياضية والطبيعية والعلوم السياسية والاجتماعية . وفى بعض الجامعات تختص، بدراسة بعض المواد ، كليات خاصة هى كليات العلوم والعلوم الاجتماعية والسياسية وهذا قبل الحرب الأخيرة .

ب — المدارس الفنية العالية .

هذه المعاهد فى المدن الآتية :

آشن ، برلين ، برسلو ، هانوفر (بروسيا) ، ميونيخ ، درسدن ، ستوتجارد ، كارلسروه دارمستاد ، وبرنسويك — وتشتمل هذه

الجلاء . فى الاسكندرية الهدوء والصفاء وزرقة السماء والماء — الأمر الذى ينشده العلماء ولايجدونه فى القاهرة الصاخبة المتقلبة الضخمة

فعلى رجال الدولة — والأمر كما أوضحنا — أن يهيئوا لجامعة الاسكندرية ذلك الجو الجامعى ، وتلك البيئة العلمية الحقة ، لكى تستعيد مفاخر جامعة الاسكندرية القديمة .

التعليم وعلم النفس الحديث

جاء فى مجلة العصر الجديد أن علم النفس الحديث مؤثر فى المنهج تأثيرا يكاد يكون ثورياً . فقد ظهر للعلماء بعد دراسة لعب الأطفال دراسة دقيقة أن اللعب ليس نشاطا عرضيا ، بل محاولة جدية من جانب الطفل لتفهم المواد والأشياء التى يتألف منها الكون ، ولتفهم وجوه النشاط التى يرى الكبار يقومون بها . فالطفل الذى يحفر جحراً فى الحديقة يتحسس فى شغف خواص الرمل والمعاول ، ويتعلم الكثير عن « الأجحار » . وقد لايكون عمله المستمر فى حفر الجحر ثم إعادة ملئه بالرمل عملا مثمراً فى نظر الراشدين ، ولكنه مع ذلك يكشف فى أثناء قامه بهذا العمل عن عدد من قوانين الطبيعة التى يعدها الراشد مسائل

فى هانوفر . ويدرس فيهما : التشريح . الصحـــة . تغذية الحيوانات والفسيولوجيا والكيمياء وعلم الحشرات والباتولوجيا ومزاولة مهنة الطب البيطرى وابحاث عن الوراثة .

د ــ مدارس الزراعة العليا

وتوجد فى برلين وبون ويوبلسدورف (بروسيا) وواهستفرو (بافيير) وهوهرهين (ورتمبرج)

هـ ــ مدارس الغابات

توجد فى المانيا ٣ مدارس لدراسة الغابات اثنتان فى بروســـيا والثالثة فى ساكس ــ اهم المواد التى تدرس هى :

طبيعة الحوادث الجوية ــ علم المعادن ــ دراسة طبقات الأرض ــ استغلال الغابات ــ علم الميكولوجيا ــ وتربية الاسماك .

و ــ مدارس المعادن : أهم المواد التى تدرس فى مدرستى بروسيا وترايبرج (ساكس) هى : علم المعادن صوغ الحديد استغلال طبقات الأرض (معاهد لاستغلال المعادن ودراستهـــا واستغلال البترول وصوغ المعادن بالكهرباء وعلاقة الكيمياء بالفحم والبترول) ويوجد أيضا معهد للبحث عن الفينيت Vignite ملحق بمدرســـة برايبرج للمعادن وبه اقسام للكيمياء وللمعادن .

ز ــ مدارس التجارة العليا فى المانيا : برلين كونجسبرج (برسناو)

نورسبرج (يافيرا) لايبزج (ساكس) وميرهاين (باد) . وتدرس فيها المواد الآتية : الاقتصاد التجارى والصناعى والاقتصاد السياسى والأحصاء والحقوق والضرائب والتأمينات وتشريع الشركات والكيمياء والجغرافيا واللغات والصحافة والفلسفة والبيداجوجيا والصحة .

ج — المدارس العليا للموسيقى (conservatoires) .

وثمة المدارس العليا للفنون الجميلة (وبها فصول دراسات عملية) فى برلين وكسلتوف ودرسد ولا يبزج وميونيخ وستوتجارد ووايمر ووايمبورج وديساوى . أما المدارس العليا لدراسة الموسيقى دراسة عملية فهى فى برلين وكولونيا وميونيخ ولا يبزج وكالسروه وستوتجارد ووايمر وتلقى دروس خاصة للاجانب كل سنة فى برلين وبوستدام .

١ — المعاهد البيداجوجية : أما الغرض من هذه المعاهد تكوين مدرسين ومدرسات للمدارس الابتدائية وقد انشئت هذه المعاهد فى مقاطعات بروسيا وباد وملبورج شيفرن . وكان عدد هذه المعاهد ١٥ ألغى منها ٨ فى أول ابريل سنة ١٩٣٢ لأسباب اقتصادية .

٢ — الأدارة

أغلب المعاهد العليا منشآت حكومية وتقوم باعبائها الحكومة

الريخ نفسها ولكن وزارة المعارف فى كل المانيا ويستثنى من ذلك بعض المعاهد .

ومع ان الجامعات والمدارس العالية خاضعة لأشراف الحكومة إلا أنها تتمتع باستقلال عظيم . ويقوم بادارتها مدير ومجلس أعلى ينتخبه مجلس الأساتذة لمدة سنتين ، وعلى رأس كل كلية عميد يختار من بين أساتذتها . ويتألف مجلس الأساتذة من جميع أعضاء هيئة التدريس : أساتذة ذوى كراسى . مساعدى أساتذة . أساتذة شرف . محاضرين .

٣ — شروط القبول

تشترط الجامعات والمدارس العليا ذات الصبغة العلمية للقبول بها أن يكون الطالب حاصلا على شهادة الدراسة الثانوية أو شهادة من الخارج موازية لها . والطلبة الذين لم يتموا هذه الدراسة يمكن تقييد اسمائهم فى « سجل القيد الصغير » . وعند مايرغب أحد هؤلاء الطلبة التقدم إلى امتحان يجب أن يحصل على شهادة قيد قانونية وتامة .

وللقبول فى مدارس التجارة العليا وفى المدارس الفنية الأخرى يمكن تقديم أخرى تمنح بعد قضاء سنوات كثيرة فى تمرين عملى وللقبول فى أحدى مدارس الفنون الجميلة يكفى إذا لم يكن الطالب حاصلا على شهادة حكومية ، أن يقدم شهادة مناسبة تدل على كفاءته وعلى دراسته الفنية .

التعليم فى بريطانيا

منذ بضعة سنوات خذلت الوزارة البريطانية فى أثناء المناقشة فى ميزانية وزارة المعارف ، وقد دهش الناس جميعا عندما سمعوا بأن أكثرية أعضاء مجلس العموم اقترعت ضد مشروع قدمته الحكومة التى يرأسها المستر ونستون تشرشل ، حول مرتبات المدرسين والمدرسات . ويرجع السبب فى هذا الخذلان إلى أن سيدة من أعضاء المجلس اقترحت مساواة مرتبات المدرسين والمدرسات ، فأقرت اقتراحها أكثرية الأعضاء ، خلافا لرأى الحكومة ، ولما رأت السيدة صاحبة الاقتراح هذه النتيجة ، التى لم تكن تقصدها ، سحبت اقتراحها .

ويدلنا هذا على اهتمام البريطانيين العظيم بشؤون التعليم . وقد أصبح التعليم الثانوى هناك فى جميع مراحله وأنواعه ، مجانيا لمن يصلح له ، وبلغت مخصصات التعليم رقما قياسيا .

ولعل القارىء يدهش إذا روينا له حقيقة لم نعهدها فى الشرق ، وهى أن الحكومة فى انجلترا لم تتدخل فى شؤون التعليم إلا عام ١٨٣٣ وكان قبل ذلك تحت إشراف لجان وهيئات أهلية لا صلة لها بالحكومة

ومعظم أعضاء هذه الهيئات ، بل الذين أسسوها من أبناء الطبقات الراقية الأغنياء ، فهؤلاء هم الذين قدموا هبات مالية طائلة لفتح المدارس ودفع رواتب المدرسين . ونشر المعارف بين الناس . وقد قيل إن التعليم فى انجلترا بدأ بين الطبقات العليا ، ثم انتقل الى الطبقات الوسطى فإلى عامة الشعب . ولم تؤسس الحكومة مدارس ابتدائية تابعة لها إلا فى نهاية القرن التاسع عشر ، وتركت المدارس الابتدائية الأهلية (وفيها أكثر من ثلث مجموع الطلاب فى المملكة) تواصل مهمتها ومنحتها مساعدات مالية وجعلت التعليم الابتدائى إجباريا ومجانيا وبدأت فى عام ١٩٠٢ فى وضع نظام المدارس الأميرية الثانوية . وكان عدد الطلاب والطالبات فى المدارس الثانوية كلها عند إعلان الحرب الأخيرة نحو نصف مليون ، ويكاد عدد الذكور والأناث يتعادل فيها وبلغ ماقدمته من الهبات لتشجيع التعليم عام ١٩٣٧ — ١٠٦٫٨٠٠٫٠٠٠ جنيه ، مع أنها لم تقدم عام ١٨٣٣ غير ٢٠٫٠٠٠ جنيه .

ويقوم نظام التعليم فى انجلترا ، على أساس تقسيم السلطات بين الهيئات الأهلية وبين الحكومة . وهذا التقسيم نوع من التعاون بين الدولة والشعب . وهو أقرب مايكون إلى شركة تعمل فيها الهيئة المركزية بالتضافر مع السلطات المحلية — أى لجان التعليم فى المقاطعات المنتخبة من الشعب — وهى مسؤولة أمام مجالس المقاطعات والادارات التى

تعينها هذه المجالس . فالحكومة المركزية تبعث باقتراحاتها إلى الهيئات المحلية ، فتنفذها أو تعدلها حسب حاجات البيئة والإقليم . ولكن المهم فى الموضوع هو أن النظار والمدرسين يتمتعون بحرية واسعة النطاق فى تطبيق برامج التعليم واختيار الكتب ، وتعيين المواد الدراسية . وتتجلى هذه الحرية بأوسع معانيها فى الجامعات القديمة والحديثة على السواء ، فهى تتمتع باستقلال تام ، والدولة تساعدها ولا تراقبها والأساتذة والمحاضرون تعينهم الجامعات ولا رقيب على أعمالهم غير ضمائرهم ومثلهم العليا ، بل إن لجميع المعلمين حق التعبير عن آرائهم السياسية وميولهم الاجتماعية .

وقد بدأ الأغنياء والموسرون من أبناء الطبقة الراقية يقدمون إعانات للنابهين من أبناء الفقراء والمتوسطين لينفقوا منها على تعليمهم الجامعى ، وتبرع كثير من هؤلاء ببناء مدارس وأجنحة خاصة فى الجامعات ووقدوقفوا عقارات لهذا الغرض ، ثم تبعتهم فى ذلك الشركات والبيوتات المالية . وماتزال تبرعات الأغنياء والنبلاء مستمرة

ولقد فوجىء العالم بعد الحربين الأخيرتين بمشكلات خطيرة لم يكن مستعدا لها ، وخلفت هذه الحرب القاسية التى فاقت فى التدمير والتقتيل كل ماسبقها من حروب فى تاريخ البشرية وراءها من الشرور والفاقة والعوز مالم يكن فى الحسبان ، ولذلك عنيت كثر الدول وفى

مقدمتها انجلترا والولايات المتحدة بدراسة مشكلات مابعد الحرب. فألفت اللجان من كبار الاخصائيين فى كل فن من الفنون ، فضلا عن مباحث كثير من الهيئات المستقلة عن الحكومات ، وأخذت منذ الآن تهيء الوسائل الفعالة لمواجهة كل طارىء لكل أزمة سواء فى الزراعة أو الصناعة أو التموين ، أم فى وسائل النقل ومشاكل الاقتصاد الدولية والمشاكل الاجتماعية التى قد تنشأ عن تسريح الجيوش إلى غير ذلك كتعمير ماخربته الحرب ، وتيسير القوت للمحروم ، والدواء للمريض وبالجملة محاولة جعل السلام المنشود سلاما جديرا بما يبذل فى سبيله من ضحايا ودم ودموع ، وإعطاء كل ذى حق حقه فى عالم تسوده الديمقراطية الصحيحة .

ولا نظن أن الاستعداد إلى مشاكل مابعد الحرب هو مجرد كتابة التقارير والكلام الكثير ، بل إن بعض الهيئات أخذت تعمل من الآن لتنفيذ برامجها الموضوعة ، وإنا نورد لك مثلا عن مدينة لندن العظيمة التى حل بها من الدمار والآلام شيء كثير ، احتملته فى صبر وجلد جدير بتلك المدينة الخالدة وشعبها القوى المتين .

فمنذ سنة ١٩٤٠ وطائرات الأعداء تدكها دكا لايدانيه فى التخريب الا تلك الغارات الهائلة التى قامت بها طائرات الحلفاء على مدن الأعداء وفى مقدمتها برلين .

وقد قدر عدد المبانى الجديدة التى قد تحتاجها انجلترا بعد الحرب بأربعة ملايين مبنى سيخص لندن منها أكبر نصيب ، وسيكون الطلب شديدا على بناء المدارس والمستشفيات على الخصوص وستكون الحاجة ماسة الى الاخصائيين فى فن البناء بدلا من الاستعانة بالعمال العاديين والمهندسين وهم قلة لايكفون لتنفيذ هذا الطلب الكبير .

ونحن ، نعلم الشيء الكثير عن التعليم فى انجلترا وعن المدرسة الانجليزية وحرية التعليم فيهـا وحرية التصرف فى البرامج لملاءمة البيئة وحاجات الزمن . ونحن نعلم أن المدارس الثانوية هناك لاتعد للجامعات فحسب بل تعد الفتى والفتاة لكل ضرب من ضروب النشاط فى الحياة العملية بفضل ماتصبغ به الدراسة بالنواحى العملية المتصلة بالحياة كما هى وبفضل ماتغرس فى الطلاب من صفات الاقدام والشجاعة واقتحام أى عمل شريف مهما يكن نوعه ، ولهذا لم ندهش عندما قرأنا خبر ادخال مادة البناء فى التعليم العام .

أليس ذلك دليلا على مدى المرونة التى يمتـاز بها التعليم فى تلك البلاد ؟ لقد ظهر للقوم أنهم سيواجهون مشكلة البناء يوم تضع الحرب أوزارها ، فأخذوا يستعدون لها وأخذت الحكومة والهيئات التعليمية المحلية تنشىء المدارس لمواجهة هذه الحاجة ، وأكبر هذه المدارس هى التى أقامها مجلس مقاطعة لندن ، ففيهـا دروس منظمة طول النهار

وهى قسمان : قسم خاص بالطبة الذين تتراوح أعمارهم بين ١٣ ، ١٦ سنة ، وقسم راق خاص بالكبار الذين تزيد أعمارهم على ١٦ سنة .

وفى القسم الأول يتعلم الطلاب برنامجا تعليميا ثانويا مدته ثلاث سنوات ، يشتمل على اللغة ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والحساب والهندسة والكيمياء ، والطبيعة ، والميكانيكا . والفنون الجميلة ، والرسم الفنى ، ورسم المبانى والانشاءات ، والرياضة البدنية ، وتنظيم الحسابات والإدارة الى غير ذلك مما يميل بالدراسة الى فن البناء .

ومتى أتم الشاب اليافع هذه الدراسة استطاع أن يلتحق بالقسم الراقى حيث يتلقى الطلاب دروسا عملية تشتمل على صناعة الآجر والبناء والتجارة وملحقاتها والاحكام والتبييض والرسم والزخرفة وصناعة الخشب الميكانيكية .

وتستمر الدراسة المهنية بالقسم الراقى ثلاث سنوات تؤدى بالناجح الى التوظف فى الفروع الفنية ذات الصلة بصناعة البناء ، كمهندسين للمبانى ، أو ملاحظين ، أو مهندسين للشؤون الصحية

وتنظيم ادارة العمل والتدريب عليه ، مادة رئيسية فى القسم الراقى لانها تهيء الطالب الى الاستفادة الى أوسع مدى من المواد التى لديه ومراعاة الظروف والأحوال عند رسم أحد المبانى .

وفى القسم الراقى الآن نحو ٥٠٠ طالب ، وفى مدرسة الصغار

١٥٠ طالبا تقريبا ، أما كليـــة إيتون فهى من أقدم وأوسع المدارس العامة التى أنشئت فى انجلترا ، وقد صدر الأمر بتأسيسها عام ١٤٤٠ م . فى عهد الملك هنرى السادس ، وتم بناؤها فى العام التالى ، ووقع الاختيار على قرية إيتون لتكون مقرها لقربها من قلعة وندسور الملكية ، وقد أضيفت إليها بعض عمارات بعد ذلك . وفى سنة ١٩٠٨ افتتح الملك إدوار السابع عدة ابنية أقيمت تذكارا للضبـاط الذين تخرجوا منها ، وقتلوا فى حرب جنوب إفريقيا .

وجرت العادة ، من بدء افتتاحها ، أن ينتهى إليها الطلاب فى العام الثانى عشر من أعمارهم ، ويقضون فيها ثلاث سنوات يلتحقون بعدها بإحدى الجامعات الكبرى ، وبالأخص كمبردج وأكسفورد .

ولهذه الكلية تقاليدها وعاداتها الخاصة فى التربية والتعليم ، ونفقات الدراسة فيها غالية . وقد تخرج منها طلبة قاموا بأدوار خطيرة فى تاريخ بلادهم العلمى والصناعى والسياسى والاجتماعى ، وأننا نجد كثيراً من أعضاء الوزارات فى بريطانيـــا — إذا استثنينا أعضاء حزب العمال — من خريجى هذه الكلية وزميلتها كلية هارو .

ومع أن طلاب إيتون من أبناء الكبراء والأغنياء ، كما قلنا ، إلا أنهم لم يستنكفوا القيام بأى عمل يطلب إليهم تنفيذه ، مساعدة منهم

فى المجهود الحربى . ومن هنا يتبين لنا أن جميع أبناء بريطانيا العظمى على اختلاف طبقاتهم وأعمـــارهم ، قدساهم كل منهم على قدر طاقته وحسب استعداده فى تعزيز الجهود التى تبذلها حكومته وأمته لكسب هذه الحرب .

منشأ المدرسة الاسلامية

عند المرحوم الأستاذ محمود احمد باشا مدير لجنة حفظ الآثار العربية أن فى القاهرة وبعض مدن القطر المصرى كثيراً من الجوامع والمساجد التى لم تنشأ أصلا لاقامة الشعائر الدينية بل انشئت مدارس لنشر العلم والثقافة . ومحو الأمية والجهل ، من هذه المساجد والجوامع جامع السلطان حسن ، الغنى عن التعريف ، وجامع المنصور قلاوون وهو جد السلطان حسن ، وجامع الناصر محمد بشارع بين القصرين وجامع برقوق المجاور لجامع الناصر ، وجامع الكامل المجاور لجامع برقوق ، فقد كانت جميعا دورا للعلم ، ومناهل للثقافة ، وإن كانت اليوم مساجد تقام فيها الشعائر الدينية لسعتها ولأن منظرها العمارى الخارجى لايختلف فى شىء عن مظهر المساجد التى أنشئت للصلاة والعبـــادة

فحسب وتختلف المدارس عن المساجد اختلافا واضحا فى داخلها فإن المدرسة تضم غالبا قبر منشئها على نقيض الجامع فيندر فيه ذلك .

وإذا كان الغرض من بناء المساجد هو الصلاة والعبادة مع إلقاء بعض الدروس فى رحباتها ، فإن الغرض من بناء المدرسة الاسلامية هو تدريس المذاهب الأربعة وإلى جانبها بعض العلوم الأخرى ، على أن يكون البناء صالحالأن يؤدى فيه الطلبة والمدرسون للفرائض الدينية

وكانت أمثل مدرسة إسلامية فى الشرق كله لافى مصر وحدها هى جامع السلطان حسن الذى ضم بسخاء كل العناصر التى أسلفنا ذكرها

أما منشأ المدارس الإسلامية فقد ذكر عنها مايلى :

حين أنشئت المدارس فى الاسلام لم تكن تعرف فى زمن الصحابة ولا التابعين بهذا الاسم وإنما أنشئت بعد الأربعمائة من سنى الهجرة وأول من قيل عنه إنه بنى مدرسة فى الاسلام أهل نيسابور فبنيت بها المدرسة البيهقية وبنى بها أخو السلطان محمود بن سبكتكين المدرسة السعيدية . وأشهر مدارس العهد القديم المدرسة النظامية ببغداد لأنها أول مدرسة تقاضى فيها الفقراء الاعانات وهى منسوبة إلى الوزير نظام الملك الطوسى وزير ملك شاه بن الب أرسلان . شرع فى بنائها سنة ٤٥٧ هـ ١٠٦٥ م وفرغ منها سنة ٤٠٩ هـ — ١٠٦٦ م

أما مصر فانها كانت حينئذ فى أيدى الخلفاء الفاطميين الشيعى المذهب فلم يدرس بها المذهب الشافعى الذى كان يجرى تدريسه فى المدرسة النظامية فانتشر منذ ذلك العهد فى بلاد العراق وخراسان وماوراء النهر وبلاد الجزيرة وديار بكر . ولم ينتشر بمصر هو والمذهب المالكى إلا بعد انقراض الدولة الفاطمية . ولما تولى صلاح الدين اقتدى بالملك العادل نورالدين محمود بن زنكى الذى بنى بدمشق وحلب وغيرها مدارس الشافعية والحنفية وبنى (أى صلاح الدين) لكل منهما مدرسة بمصر . وأول مدرسة أنشأها بديار مصر هى المدرسة الناصرية للشافعية بجوار جامع عمرو سنة ٥٦٦ هجرية (١١٧٠ م) وكان يومئذ متربعا فى دست الوزارة ثم بنى بجوارها مدرسة للمالكية تعرف بالمدرسة القمحية . كما بنى بالقاهرة المدرسة السيوفية ، وهى تعرف اليوم بجامع المطهر على رأس شارع الجواهرجية للسادة الحنفية ثم اقتدى به فى بناء المدارس بمصر والشام وغيرهما من الأقطار أولاده وأمراؤه وحذا حذوهم كل من ملك مصر بعدهم من المماليك ملوكا وأمراء .

وأول مدرسة بنيت على الشكل المتعامد الشائع فى جميع مدارس المماليك هى مدرسة السلطان الملك الكامل الأيوبى المنشأة سنة ٦٢٢ هجرية (١٢٢٥ م) والتى أوقفها منشؤها على المشتغلين بالحديث النبوى

فكانت أيضا أول دار حديثة أنشئت بمصر لهذا الغرض بين القصرين بجوار مسجد برقوق . كذلك أقاموا اليوم دارا حديثة أخرى بالاسكندرية أنشأها سنة ٦٧٨ هجرية (١٢٧٩ م) عبد اللطيف بن سيف التكريتى وتعرف الآن بمسجد أبو على

ولعل مدرسة « الأمير جمال الدين الأستدار » مثلا يساق على حال المدوسة الاسلامية . فقد كان القصران التاريخيان المعروف أحدهما باسم القصر الكبير الشرقى . والآخر باسم القصر الصغير الغربى أشهر عمارات القاهرة . وكانت بينهما ساحة عظيمة صالحة لاستعراض ألوف مؤلفة من الجند ومايزال جانب من هذه الساحة معروفا إلى اليوم باسم « بين القصرين » بحى الجمالية وكان بين الرحاب التى تحيط بالقصر الشرقى رحبة « باب العيد » نسبة إلى أحد أبواب ذلك القصر وهو باب « العيد » المشرف على تلك الرحبة التاريخية التى يشغل موضعها الآن رقعة من الأرض ممتدة من شارع حبس الرحبة غربا الى مسجد مغلطاى الجمالى بقصر الشوق شرقا وعرضها يمتد من درب المبيضة شمالا إلى بداية شارع قصر الشوق جنوبا .

ففى الطرف الشمالى للحد الغربى لهذه الرحبة . أو على الناصية الشرقية لشارع « التمبكشية » اليوم وخط « الركن المخلق » بالأمس ، وفى يوم

السبت الخامس من جمادى الأولى سنة ٨١٩ بدأ الأمير جمال الدين الاستدار بانشاء هذه المدرسة حتى انتهى من عمارتها فى يوم الخميس الثالث من شهر رجب سنة ٨٢١ هجرية.

والاستدار — لقب لمن يتولى أمر أموال السلطان أو الأمير من إيراد وصرف. واليه يوكل أمر البيوت السلطانية وحاجباتها على اختلاف أنواعها وخدمها. غير أن الأمير جمال الدين تمادى فى الاعتداء على سلطة الوزارة حتى حصرها كلها كبيرها وصغيرها فى يده وأصبح الآمر الناهى المتصرف فى رقاب العباد والأموال فاغتصب القياسر والضياع. وكان موضع مدرسته هذه قيسارية وطباق كلها وقف فوضع يده عليها ظلما ثم هدمها وبنى المدرسة. أما لزمه من آلات وأحجار وأخشاب ورخام فقد جمعها جمعا واغتصبها اغتصابا

وكان بمدرسة الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون التى كانت بالصورة (الطرف القبلى الغربى من شارع المحجر) بقية من شبابيك من النحاس المكفت بالذهب والفضة وأبواب مصفحة بالنحاس البديع المكفت ومن المصاحف والكتب، شىء كثير فاشترى كل هذا بستمائة دينار وكانت قيمتها عشر أمثال ذلك، ثم نقلها إلى داره.

ومع أن تخطيط هذه المدرسة يماثل غيره من تخطيط المدارس

التى بنيت فى عهدها على الأقل فان رخام وزرتها ونجـارة سقوفها ونقوشها تشهد لمهندسها بسلامة الذوق والكفاية الفنية والابداع فى التخطيط . أما من الوجهة الهندسية فكان على شىء من الضعف فى علم مقاومة المواد ، فقد وجدنا جـدرانا بأكملها أكبر سمكا من الأساسات التى يحملها فكان ذلك سبباً فى تصدعها قبل أوانها وسقوط مئذنتها لتصدع قاعدتها وتفكك أحجارها .

ولقد أوقف عليها كثيرا من الدور الانفاق من ريعها عليها إلا أن هذه الأوقاف كانت كالأدوات والآلات اغتصبت من الناس اغتصابا وكان الصناع يعملون فى بنائها بأبخس أجر ، وشدة عسف فكان جزاؤه أخيرا أن قبض عليه الملك الناصر فرج بن برقوق وقتله فى جمادى الأولى سنة ٨١٢ هـ . ثم استولى على أمواله وأملاكه ، فحسن جماعة للسلطان أن يهدم هذه المدرسة ورغبوه فى رخامها لجماله . وأن يسترد أوقافها لوفرة إيرادها فمال إلى ذلك الرأى وعمل على تنفيـذه لولا أن الرئيس فتح الله كاتب السر استشع أن يهدم بيتا لله تقام فيه الصلوات الخمس . ومازال بالسلطان يرغبه فى بقائها على شريطة أن تنسب اليه وأن يمحى اسم جمال الدين منها حتى رضى بذلك وفوض إلى الرئيس أمرها . فدبره أحسن تدبير ، ذلك أن موضع هذه المدرسة كان موقوفا فاستبدل به جمال الدين أرضا من أرض الدولة بالجيزة

وحكم له قاضى القضاة كمال الدين بن العديم بصحة الاستبدال فهدم البناء الموقوف وبنى موضعه هذه المدرسة وتسلم صاحب الوقف الأرض المستبدل بها إلى أن قتل جمال الدين وصودرت أمواله فكان مما صودر هذه الأرض .

وهنا ادعى السلطان أن جمال الدين ابتاعها من بيت المال بغير إذن منه فى بيعها . فأفتى حينئذ شمس الدين المدنى المالكى بأن بناء هذه المدرسة الذى أوقفه جمال الدين على الأرض التى لا يملكها بوجه صحيح ، لا يصح . وأنه باق على ملكه الى موته ثم ندب شهود القيمة لتقويم المدرسة فقوموها باثنى عشر ألف دينار ذهبا وحرروا محضرا بهذا الثمن الذى دفع لأولاد جمال الدين على يد أحد القضاة الذى حرر عقد بنائها للسلطان الذى عاد بدوره فاسترد منهم هذا المبلغ ثم أشهد على نفسه أنه أوقف أرض هذه المدرسة بعد استبدالها وحكم حاكم حنفى بصحة الاستبدال وحكم كذلك بصحة وقف البناء الذى اشتراه بغير ثمن وحكم بصحة الوقف أيضا . ثم طلب وقفية جمال الدين ومزقها . وجدد وقفية أخرى باسمه حرم فيها أولاد جمال الدين من فائض ريع الأعيان التى أوقفت على المدرسة وأبقى على غير ذلك من الرواتب الخاصة بخدمها . وأرباب المناصب فيها . أما فائض ريع

الأوقاف فخص ببعضه أولاده وبباقيه تربة أبيه الملك الظاهر برقوق بالمجاورين أو بقرافة المماليك . قد حكم بذلك القضاة الأربعة بعد ما كانوا قد حكموا بصحة وقفيته جمال الدين ثم حكموا ببطلانها ،

ولما تم له ذلك محا من هذه المدرسة اسم جمال الدين ورنكه وكتب اسم الناصر فرج بدائر صحنها من أعلاه وعلى قناديلها وبسطها وسقوفها . وصارت هذه المدرسة تعرف بالناصرية بعد ما كان يقال لها « الجمالية » . ولم تزل على ذلك حتى قتل الناصر فرج . وقدم الأمير (شيخ) الى القاهرة وتقلد زمام الحكم فتوصل كل من شمس الدين محمد أخى جمال الدين وزوج ابنته الى شرف الدين العجمى استدار الأمير (شيخ) حتى أحضر قاضى القضاة وحكم الصدر على قاضى القضاة الحنفى برد أوقاف جمال الدين الى ورثته من غير استيفاء الشروط فى الحكم . بل تهور فيه وجازف لأسباب أخصها عناية الأمير (شيخ) بجمال الدين الاستدار لخدمة سابقة أداها اليه ، فكانت سببا فى اتهامه بمحالأته على السلطان فرج الذى قبض عليه .

كذلك سعى قاضى القضاة هذا بمساعدة زملائه حتى أعاد شمس الدين الى مشيخة خانكاة بيبرس (التى أمام الدرب الأصفر اليوم) وغيرها من الوظائف التى خلع منها عند ما قبض السلطان على أخيه

وهكذا استولى شمس الدين وصهره شرف الدين على مال كثير كان قد جمع للمدرسة من فائض ريعها . ثم تورطوا إلى حد أنهم أقدموا على تلفيق وقفية أخرى أثبتوا فيها أن جمال الدين اشترط النظر على المدرسة لأخيه شمس الدين المذكور وذريته وشهد بذلك قوم استمالوهم فقالوا . وقد صدق على هذه الوقفية قاضي القضاة صدر الدين بن الآدمي وتبعه بقية القضاة فاستمر الحال على هذا البهتان والافك زمنا الى أن ثار بعض صوفية هذه المدرسة وحرر محضرا بأن النظر عليها إنما هو لكاتب السر . فلما ثبت ذلك نزعت يد أخي جمال الدين عن التصرف في المدرسة وتولى نظرها ناصر الدين محمد بن البارزي كاتب السر واستمر الأمر على هذا المنوال فكانت قصة هذه المدرسة من أعجب الأمور في تناقض القضاة وحكمهم بابطال ما صححوه ثم حكمهم بتصحيح ما أبطلوه ، كل ذلك ميلا مع الجاه وحرصا على بقاء رياستهم — ستكتب شهادتهم ويسألون . . .

أثر البيئة الاسلامية

عند الأستاذ حسين يوسف موسى أن معنى قول المربين : « والبيئة القول الفصل فيما يصير اليه أمر هذه الاستعدادات والميول » أو قولهم : « الطفل قابل لكل نقش وصورة ، ومائل الى كل ما يمال به اليه » فهو معنى بقية الحديث الشريف « وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » فالابوان قادر ان على أن يغرسا فى نفس طفلهما ماشاءا أن يغرسا من العقائد والميول ، وقادران على أن يطبعاه بالصورة التى يحبان أن يكون عليها . ولا شك فى أن الوالدين جزء من البيئة التى هى كل ما يحيط بالمرء ويؤثر فيه تأثيرا قليلا أو كثيرا عن طريق مباشر أو غير مباشر من يوم يكون جنينا الى يوم يموت . فالكل يذكر البيئة ويعترف بأثرها العظيم فيما يصير اليه أمر الطفل، يذكرها العلم الحديث القائم على التجارب ويذكرها الحديث الشريف المقول عفو البديهة

ومن الأحاديث الشريفة التى تتفق مع النظريات التى تتعلق بالتربية قوله صلى الله عليه وسلم : تخيروا لنطفكم فأن العرق دساس . فهذا الحديث تطل الوراثة برأسها منه والوراثة هى أحد العاملين القويين فيما يكون عليه الانسان فى حياته ، إذ أثبت العلماء بالتجارب وبالتقصى أن الفرع يرث أصله فى صفاته الخلقية والخلقية ، أو فى كثير منها .

كذلك من الأحاديث الدالة على رقيع قدر النبى ﷺ فى اتباعه أمثل الطرق وأقومها فى تعليمه أصحابه ، ذلك الحديث « كان النبى ﷺ يتخولنا بالموعظة كراهة السآمة علينا » فالنبى ﷺ ساس أصحابه أحسن سياسة ، واتبع فى تعليمهم ما ان يزال على الزمن جديدا ، وما ان ينفك عند العلماء قويما فكان يطرق الحديد وهو محمى ، ويأخذ النفوس وهى ناشطة ، ويتحين الفرص والمناسبات لالقاء حكمة ، من غير أن يطيل فيمل .

وأظن القارىء الكريم لايحتاج الى القول بأن الوالدين الذين ذكرهما الحديث الأول ، واللذين يهودان أو ينصران أو يمجسان ليس هما الوالدين حقيقة فحسب ، بل المراد بهما أيضا المربون والقوامون على النشء . وانما ذكر الحديث الوالدين لانهما أقرب الناس الى الطفل وألصقهم به ، وهما أول من تتفتح عليهما عيناه ، وأول من يقلد .

ويأتى بعد الوالدين مباشرة دور المعلم ، وبخاصة المعلم الأولى . فهو يتسلم الطفل رطب العود ، غض الحداثة خالى الوفاض ، فارغ الجعبة الا مما لقنه فى سنيه الأولى ومما رآه فى زمن الطفولة المنزلية القصير . فالطفل أمانة بين يديه ، هو وديعة أمه وأبيه بل هو وديعة الوطن سلمت اليه

الطفل نبت صغير، ان أحسن القيام عليه نما وبرو آتى ثمرة كان لمربيه فضل مشكور، وان أهمل ذلك النبت، أوان كانت القوامة عليه غير صالحة، أو ان كان غذاء روحه وعقله غذاء ضارا سيئا، أو ان لم يراع المعلم فى عمله إلا ولاذمة، أو ان كان قدوة سيئة، ومثلا رديئا لتلاميذه، ساءت العاقبة، وضاعت آمال كانت معقودة وفات الغرض الذى من أجله تفتح المدارس وتقام المعاهد. وليست مسئولية المدرس فى كل أدوار التعليم بأقل خطورة من مسئولية المعلم الأولى، بل قد تفوقها. فليتق الله المربون.

وبعد، فهذا قول الرسول ﷺ من ثلاثة عشر قرنا. قول ينطق به رجل أمى فى عصور الجهالة، وقرون الظلمة، ثم لم يزل تتنقل به الحقب وتمشى به القرون، حتى تجىء الأيام مصدقة له، ويأتى العلم الحديث والنظريات الجديدة موافقين متحدين معه، ينهض العلماء يضعون قواعد التربية فاذا هم لايخرجون عن هذه القاعدة التى نطق بها ذلك الذى لم يجلس أمام مرب، ولم يأخذ عن معلم، سبحانك اللهم هذا قول من لاينطق عن الهوى، ان هوالا وحى يوحى.

أهداف التعليم العربى والبريطانى

قلنا إن أساس منهاج المدرسة الاسلامية فى الماضى هو حفظ القرآن لأن حفظه يكفل للحافظ أسلوبا أدبيا وعلما فقهيا واجتماعيا أما المدرسة العربية الآن فتقفو وقفو المدرسة الأوربية وفى كثير من البلاد العربية تتخذ الدراسة البريطانية فى الكثير من النواحى مقياسا كما فى مصر والسودان والعراق وفلسطين مع بقاء النظام القديم كما فى الكتاتيب والأزهر والزيتونة فى تونس ومعهد أم درمان فى السودان . أما عند الانكليز فأن الهدف الأسمى للتعليم هو تهيئة الصغار لحياة طيبة ، من ثم أعدوا فئة من المعلمين ، يعهد اليها باعداد الصغار للمساهمة فى حياة الكبار هذا الى أن المعلمين فى البلاد البريطانية أساتذة فى فن الحياة يستطيع الأطفال أن يتلقوا عنهم أصول هذا الفن . ولما كانت الأمة البريطانية ديموقراطية بفطرتها وطبيعتها ، كان معلموها كافة متشربين بالمبادىء الديموقراطية فاذا ما اقتدى بهم الأطفال — كالمعتاد — شبوا على هذه المبادىء السامية .

وللمدارس الانكليزية أهداف معينة ، فهى تحرص على أن

تكون هيئات اجتماعية صغيرة تسعى لتخريج او خلق هيئات اكثر انتظاما واسمى هدافا . وهذه الروح تسود المدارس ، العامة منها والخاصة وسواء أكانت من رياض الاطفال أو من المدارس الثانوية ومن اهم الظواهر فى رياض الاطفال عندهم ، اعداد فصول فى الهواء الطلق ، يعنى فيها بالغذاء ويمنح فيها الطفل حرية تامة فى حركاته وتصرفاته وحديثه . وتشرف على هذه الفصول مربيات قديرات . وهذا النوع من رياض الاطفال ، يستخدم اثاثا ذا الوان زاهية ، ولعبا كثيرة متباينة متنوعة . ولايتلقى فيه الاطفال فيما بين سنى الخامسة والسابعة دروسا وانما يقتصر التعليم فيه على ما يزجى من نصائح وارشادات وشرح اثناء ساعات الالعاب والرسم والاعمال اليدوية والتمثيل . ولذا فانها تعد بحق اساسا للنظام الصحيح الذى يعزى اليه سر النجاح وقد اخذت الكثير من البلاد العربية بهذا النوع من مدارس رياض الاطفال وحضانتهم .

وكذلك ترمى المدارس الانكليز الى خلق هيئة اجتماعية روحية كما انها تعد الشباب للاعتماد على النفس . فقد كانت هذه المدارس - ولاتزال تساير رقى الامة ، وتتمشى مع حاجاتها المطردة المتشعبة ، فتعد الطلاب لخير حياة حرة ، وتزودهم بالكمال الخلقى وتهيؤهم لخدمة البلاد فى اخلاص واستقامة وصدق ، وتعودهم التضحية بالمصلحة

الخاصة فى سبيل المصلحة العامة والعمل لتوفير الرفاهية للمجتمع والخير للانسانية .

وهذا كله نلمسه اليوم فى الشباب الانكليزى ، الذى امتشق الحسام ليدافع عن الحرية والديموقراطية ولينصر الضعيف ويرد كيد المعتدى.

الانفاق على التعليم

بينما صار التعليم فى المدرسة الاسلامية يعتمد على ريع الاوقاف المحبوسة على طلبة العلم وحفظ القرآن وخدمة المساجد ، يعتمد التعليم الانكليزى على المساعدات والمنح الخاصة وعلى جهود الهيئات المدنية . فما قامت رياض الاطفال والمدارس الابتدائية والثانوية والجامعات الا على تلك الهبات والمنح والا على جهود العلماء الروحانيين ، اذ ساهم الانكليكان والكاثوليك والملوك والامراء والشركات والاغنياء والتجار فى منح هذه المؤسسات المال الذى كان عونا على اقامة المدارس المختلفة فى ارجاء البلاد .

وصحيح أن الحكومة والهيئات المحلية منذ عهد قريب ، قد نهضت بمختلف تنظيم التعليم الوطنى على الاسس الحديثة ، فاصبحت وزارة

المعارف تراس ٣٢٠ هيئة محلية ، اضطرتها الى اتباع النظام الذى وضع لتوحيد الطريقة العامة للتعليم ، دون تضحية بالحاجات المحلية غير أن مدارس الاطفال والمدارس الابتدائية لاتزال تضم الى اليوم اطفالا تتراوح اعمارهم بين الخامسة والحادية عشر ، وتتبع منهاجا خاصا لاعداد الصغار فيما بعد هذه السن ، واذ كان عدد التلاميذ فى ازدياد مطرد سريع ، قبل الحرب الاخيرة ، فقد عدلت سن الطالب ترك الطالب للمدرسة ، فاصبحت الآن محدودة بسن الخامسة عشرة

ولقد كان اتساع التعليم الثانوى فى انكلترا عظيما خلال الثلاث والثلاثين سنة الماضية ، فبينما كانت المدارس الثانوية للبنين تضم زهاء ٨٦٠ الف طالب فى سنة ١٩٠٤ ، اصبح عدد طلابها اليوم نصف مليون تقريبا وبينما كان عدد الطالبات فى المدارس الثانوية للبنات ١٣٣ الف طالبة فى سنة ١٩٠٢ ، اصبح عددهن اليوم ٣٥٠ الفا ، وهذا الاتساع ، الذى لم يقتصر على التعليم الابتدائى والثانوى ، بل امتد الى المدارس التجارية والصناعية ، ضاعف من الفائدة ، كذلك انشأت الهيئات المحلية وعشرات من الشركات الكبيرة مدارس للاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة ، تلقى فيها الدورس طيلة اليوم .

ولعل اكبر دليل على مدى ما اصاب تعليم البنات من تقدم ، هذا الاثر البارز فى التطور الاجتماعى العام ، فان كثيرا من النساء قد اكتسبن شهرة واسعة ، وبرزن فى الحياة العامة سواء فى النواحى الاجتماعية او الادبية او الفنية. وما كان ذلك الا بفضل جماعة من النساء اوقفتهن كلها للدرس وتحررن من قيود تقليد مدارس البنين ومناهجها وعلى هذا وسع مدارس البنات الثانوية والعالية ان تصل الى مستوى عال جدا ، وان تغدو مراكز تعليمية اكثر تنوعا وثباتا منها فى اى بلد اخر.

المعلمون

فى المدرسة الاسلامية القديمة كان المعلمون من غير إجازات وامتحانات ، وكان لكل من يأنس فى نفسه القدرة على التعليم أن يصبح معلما أما عدد المعلمين والمعلمات فى انكلترا فانه يبلغ الآن عشرات الألوف وهم ينتظمون فى هيئات خاصة فى نقابات وجمعيات ، ويتخرجون فى مائة دار للمعلمين ، وفى جامعات بعضها حكومية وبعضها كنائسية ، وتنظم لهم دورات دراسية يتلقون فيها محاضرات فيما يجد من العلوم

والفنون ، وفى مختلف الموضوعات ، حتى تتاح لهم فرص التوسع فى الاطلاع ، وتحسين طرق التدريس ، وحتى تسد الحاجة الى المعلمين إذا ما ازداد عدد الجامعات ولقد توسعت جامعات برمنجهام ومنشستر ، ولفربول وشفيلد وبرستول وريدنج فى سنة ١٩٢٦ ، ومنحها اللورد هلدن مساعدة ضخمة كى تزداد نموا . كذلك اتسعت الحركات التعليمية وطرق التعليم ومواد الدراسة فى المدارس المختلفة .

وبينما الأمية لاتزال متفشية فى البلاد العربية فانه ليس فى انكلترا أميون ، فكل فرد فيها يعرف القراءة والكتابة . ولم يحدث من قبل أن اضطرت الأمة الانكليزية إلى أن تهتم بأمرها بمشكلة التعليم ، رغم أن الديموقراطية الصحيحة تتطلب ذلك . فقد أخذت هذه الأمة تطالب اليوم بمد أمد الحياة المدرسية للفرد ، وباعداد الدور الصحية للمدارس ، وتأليف جمعيات من الآباء والمعلمين للتعاون فى العمل لخير التلاميذ ، كما مضت تطالب بانشاء مراكز للالعاب وبتنظيم الاذاعات المدرسية والمشاهد التعليمية التى تروق للاطفال والشباب البالغين بل الكبار . وهذه العوامل كلها تساعد على تثقيف المجتمع عامة وتهذيبه

وقد خطت البلاد البريطانية خطوات واسعة فى سعيها لتعليم المجتمع وتعزيز الرغبة فى المساهمة فيه وهذا يدعو الى إعادة النظر فى تقدير الأهداف التى ترمى اليها فلسفة التعليم . وفى تعديل اتجاهات

التعليم فى سن البلوغ ، وتنظيم الصلات بين مراحل وأنواع التعليم المختلفة ، والعمل على أن تكون الجامعات والمدارس ومختلف الطبقات بيئات تنبت فيها الروح الوطنية ، وروح الزعامة الديموقراطية ، وقد أصبح الطلاب يميلون الى توحيد الثقافة فى الجامعات ، كما صار المدرسون ينزعون الى الأقلال من الاعتماد على الامتحانات . وقد هيأت الحرب للناس المجتمعات والأماكن التى يستطيعون فيها أن يخدم بعضهم بعضا ، وأن يذكروا المثل العليا القديمة التى انشئت من أجلها المدارس والتى تدعو الى تعظيم الخالق ومساعدة بنى الانسان . وقد فشا فى المدرسة الاسلامية القديمة روح الجمود والجهل وجانبه الديموقراطية ، تأثرا بتفشى الظلم والطغيان

الحرية فى التعليم

على الرغم من أن وزارة المعارف البريطانية قد نهضت منذ أكثر من أربعين سنة ، إلا أنها لم تفتتح سوى مدرسة واحدة . وهى لا تنهض بتأليف الكتب المدرسية ، ولا تقوم باستخدام المعلمين أو دفع مرتباتهم . ولكنها مع ذلك تقدر نصف نفقات التعليم ، وتشاطر الهيئات المحلية

أعباء الأبنية الجديدة ، وفى توجيه سياسة التعليم بصورة عامة . وهى تستخدم سيطرتها عن طريق المقترحات التى تنشرها على الهيئات التعليمية وقد عمدت منذ سنوات الى إصدار كتاب سمته « مقترحات للمعلمين » تتوفر بين حين وآخر على تنقيحه وتعديله وإعادة طبعه ، وهذا الكتاب يؤثر بصورة غير مباشرة فى جميع المناهج المدرسية . كذلك تصدر وزارة المعارف كتابا تحت عنوان « مقترحات لتخطيط بناء مدرسة ابتدائية عامة » تعمل به جميع المدارس . فضلا عن أنها تصدر كتيبات اخبارية عن وجهات مختلفة للتعليم وعن التجارب التعليمية فى انكلترا أوفيما وراء البحار ، وعن أحدث الطرق فى التربية والتعليم والأهم من كل ذلك أن وزارة المعارف تستخدم عددا من المفتشين يحمل كل منهم لقب « مفتش صاحب الجلالة » ويعين من قبل جلالة الملك . وهؤلاء المفتشون يتنقلون بين المدارس ويتعرفون الى المعلمين ويفتشون تفتيشا دقيقا ، فتسترشد الوزارة بتقاريرهم فى أعمالها وتصدر مقترحاتها على ضوئها . كذلك لدى الوزارة لجنة استشارية تدرس وتضع الخطط التعليمية النافعة . وهذه اللجنة هى التى أصدرت تقريرى « هدو » و « اسبنس » اللذين سبق أن أثرا تأثيرا عظيما فى تنظيم التعليم

وتتمتع الهيئات المحلية بحرية واسعة فى العمل وان كانت مقيدة فى وضع خطة التعليم الخاصة بها وفى وضع نظمها .

التدوين وأثره فى نهضة المدرسة الاسلامية

عرف العرب فى الجاهلية قبل الاسلام التدوين ، ونعنى به تقييد الأنباء والوقائع والمراسلات والخطب والقصائد والآثار بالكتابة والنقش على الأحجار ، ومن التدوين التأليف وتسجيل المضابط والأحكام والقرارات ، فقد كان التدوين معروفا فى اليمن والحيرة . أما بعد الاسلام وكان هناك كتبة للوحى المحمدى ، على الرقاع وسعف النخل والحجر الرقيق الأبيض والأضلاع ، واتخذت هذه صحفا ، جمعها أبو بكر ، وكذلك كتب بعض الصحابة مثل عبدالله بن عمرو ابن العاص ، أحاديث النبى . فكان هذا أول عهد العروبة الاسلامية بالتدوين وإعداد الكتب والمؤلفات وترتيبها وتبويبها وتسهيل تناولها ، وقد تبع هذا كثرة النساخ ، الذين يدونون نسخا كثيرة من الكتاب الواحد ، فكان النسخ هو المطبعة البدائية الأولى ، وكان النساخ هم آلة الطباعة البشرية ، ومن ثم بدأ إنشاء خزانات الكتب أى مكتبات خاصة

لاعامة (١) مثل خزانة كتب محمد بن الحسين بها كتب فى النحو واللغة والأدب . وبتدوين هذه الكتب واستنساخها وجمعها واقتنائها وايداعها خزانات وأماكن خاصة ، أصبح التعليم على أساسها وبمعونتها - ميسورا ، فكثر المعلمون والمصنفون ومعاهد التعليم . من ذلك أن مكة والمدينة ، كانتا مركزين لأولى المدارس الاسلامية وكان من مشهورى « الفقهاء » أى المعلمين فى مكة معاذ وعبدالله بن عباس وعبدالله ابن الزبير أما فى المدينة ، وكانت أوفر علما وتعليما وتدوينا ، فقد اشتهر عمر وعلى وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر بن الخطاب . أما فى الكوفة ، فقد اشتهر على ابن أبى طالب وعبد الله بن مسعود الذى كان من تلاميذه معلمون منهم ستة بزوا غيرهم وهم علقمة والأسود ؛ ومسروق وعبيدة (٢) ؛

---

(١) راجع الفهرست لابن النديم ، والأمثال وكتاب الملوك وأخبار الماضين لعبيد بن شرمة وراجع الأغانى الجزء الرابع ص٥٢ (٢) ص٢٦٦ - ١٨٥ فجر الاسلام أحمد أمين بك

والحارث بن قيس ، وعمرو بن شرحبيل . أما فى البصرة فأشهر المعلمين أبو موسى الأشعرى وأنس بن مالك ، وبعدهم الحسن البصرى وابن سيرين

الكتب فى عصر الخلفاء

عند الأستاذ المستشرق هيوبرت بيرد أنه فى السنين الأولى من الفتوح الاسلامية ، وتشييد صرح الامبراطورية العربية ، كان العرب منصرفين الى الأمور العسكرية والإدارية ؛ ولم يكن لديهم متسع من الوقت للاشتغال بشئون الأدب وحتى قبل أن يؤلف الإسلام بين قلوبهم ، ويوقظ شعورهم القومى ولم يبد العرب إلا قليلا من الطموح الادبى ، عدا ناحية واحدة هى ناحية الشعر الذى تفوقوا فيه كثيرا وأنتجوا انتاجا عظيما ، فلما طلع عليهم الاسلام بنوره الفياض خلب الدين الجديد عقولهم وبهر أبصارهم واستوعب نشاطهم ووجدوا فى القرآن الكريم مايغنيهم عن أى كتاب آخر ، فأقبلوا عليه

يعظمونه ويتخذونه كنزاً وذخراً ويحرصون على نسخه فى عناية تامة على رقاع الجلد وصفحات الرق الذى كان يجلب من جنوب جزيرة العرب وكان لهم فى تلك المواد مايسد حاجتهم إذ لم يكن عصر التدوين قد بدأ بعد ، ولم يكن لديهم أدب مستفيض يجب تدوينه ، أو نظام حكومى متقن يدعو إلى استخدام الوثائق والسجلات على نطاق واحد . فلما فتح العرب مصر وجدوا صناعة الوراقة مزدهرة ، إذ كانت مصانع البردى قائمة فى الوجه البحرى منذ قديم الزمن وكانت تجارة البردى وتصديره الى بيزنطة مزدهرة فى ذلك الحين . وفى سنة ٧٠٤ ميلادية ، فتح العرب سمرقند ، وهناك تعلموا فن الوراقة (أى صناعة الورق) من بعض الصينيين الذين أسروهم هناك . وعلى رغم وقوع العرب على هاتين المادتين ، منذ زمن بعيد ، ظلت سجلات الدولة فى قصر الخلافة تكتب على الرق ، إلى القرن التاسع الميلادى ، ويحدثنا ابن النديم فى كتاب رست بأن الوثائق الرسمية سرقت من قصر الخلافة فى بغداد

أيام النزاع بين الأمين والمأمون بعد موت والدهما هرون الرشيد. ويبدو أن هذه الوثائق كانت مكتوبة على الرق ، لأن اللصوص بعد أن محوا ماعليها بالماء ، مضوا يبيعونها فى الأسواق كمادة للكتابة . وكان فى عملهم هذا ولا ريب خسارة للتاريخ العربى لايستهان بها !

على أن القرن الثامن الميلادى شهد ازدهار تجارة الورق العربية وهى تجارة ذاع صيتها فى الآفاق فى القرون التالية. وكان أثر هذه الصناعة الجديدة عظيما جدا فى داخل الامبراطورية الاسلامية ، وفى خارجها على السواء. وذلك لان الرق والبردى كانا من غلاء الاثمان، بحيث لم يكن فى وسع أحد أن يقتنى المخطوطات سوى الاثرياء. أما الكتب المتخذة من الورق فقد يسرت التعليم للرجل العادى ، العالم والتلميذ على السواء برغم أنها كانت لاتزال غالية الثمن بطيئة النسخ ولقد وافق ادخال صناعة الورق، بدء الحركة الاسلامية الادبية والعلمية ؛ وهى حقيقة لا يمكن المبالغة فى أهميتها وكانت صناعة الورق عاملا

جوهريا فى تشجيع نوعين آخرين من الصناعة هما صناعة المداد الملون وتجليد الورق الذى هو أقل صلابة من الرق . وقد كان التجليد فى عهده الاول عبارة عن لوحين غليظين من الجلد الجاف المتصلب. أما صناعة دبغ الجلود فيقال إنها قد اكتشفت فى الكوفة لغرض الحصول على تلك الليونه الضرورية لتجميل التجليد وزخرفته ، ذلك الزخرف الذى حسدتهم عليه الدنيا بأسرها فيما بعد ويقال أنهم استعملوا التمر فى الدباغة .

ومهما يكن من أمر فقد بلغ تجليد الكتب الاسلامية من الجمال منزلة سامية لم يفقها شيء قط واقتصر التجليد فى أول الامر على الزخارف البسيطة ومن أوائل المدن التى اشتهرت صناعة تجليد الكتب فى الاسلام مدينة الطائف بالحجاز والحق أن ذلك العدد الغفير ، وتلك الكثرة الرائعة العجيبة فى العلماء والشعراء والكتب النفيسة ، وكرماء المحسنين قد نهض بالامبراطورية الاسلامية كلها إلى درجة عالية . فى التعليم لم تكن معروفة فى أية جهة أخرى من دنيا ذلك العصر فقد جرى الثريا على

سنة انشاء المدارس ودور الكتب العامة ومنافسة بعضهم بعضا فى هذا السبيل . حتى ليسعنا أن نقول إن الامبراطورية الاسلامية قد حوت بين أطرافها من الكتب أكثر مما كان فى أوروبا بأسرها إن صح ماذكره القدماء فها هو اليعقوبى يحدثنا بأنه كان يوجد فى بغداد وحدها فى زمانه ، أكثر من مائة من حوانيت الوراقين وبائعى الكتب وكان الوراق عادة يصف كتبه للبيع على رفوف خص (كشك) صغير يقيمه بجانب المسجد وكانت الكتب كلها مخطوطة باليد ولهذا كان الوراق يستخدم عددا من النساخين ليستعيض لما ينسخون مما يبيعه من الكتب كما كان هو نفسه ينسخ النفيس منها بخط يده . وكان ياقوت الحموى نساخا عند أحد الوراقين وياقوت هذا هو صاحب معجم البلدان المشهور ، الذى ظهر فى القرن الثالث عشر للميلاد ، وكان فى أثناء اشتغاله بالنسخ قد جمع كثيرا مما أودعه فيما بعد معجمه الذى خلفه للأجيال القادمة . فقد كان العلماء ومريدوهم من أهل الثراء ومحبى العلم

يتنافسون فى جمع المخطوطات فى شغف وحماسة. وقد أنشأ الخليفة المأمون دار كتب عظمى فى بغداد ويقال إن الوزير الصاحب ابن عباد كان يحتاج الى أربعمائة جمل لنقل كتبه الخاصة .

وفى ذلك العصر أيضا ، ظهر كثير من المتظاهرين والمتعاظمين الذين كانوا يقتنون الكتب لمجرد مجاراة السنة الشائعة. وهنا يحدثنا المقرى بقصة عالم من علماء قرطبة كان يريد شراء أحد الكتب النادرة ، وإذا برجل ظل يزيد عليه فى كل ثمن يعرضه ، مع أن ذلك الرجل اعترف بأنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة فلما سأله العالم عن سبب اصراره على رفع ثمن الكتاب أجابه الرجل بأنه أنشأ دارا للكتب ، وأنه يريد أن يجعلها أعجوبة من أعاجيب بلدته ، وأن فى أحد رفوفها فراغا لا يتسع إلا لمثل هـذا الكتاب المحسن التجليد وأنه يريد أن يقتنيه مهما كلفه من الثمن . وقد كانت هذه الظاهرة سببا فى رفع أثمان الكتب النادرة وفى تزوير توقيعات المؤلفين على بعض الكتب التى وجدت سبيلها الى السوق تحت هذا الستار المختلق

كما كان لهذا الاتجاه أثر آخر . هو أن جامعى الكتب بدأوا يهتمون بحسن الخط أكثر من اهتمامهم بصحة النصوص ، وخلوها من الاخطاء وذلك لأن حسن الخط كان يستهوى فى الحال أفئدة الاثرياء من غير العلماء وهؤلاء كانوا أغلبية المشترين

وبرواج سوق الكتب زاد عدد الخطاطين المحترفين زيادة عظمى ولا سيما فى عصر المأمون وأصبح الخط صناعة يشترك فيها العلماء والطلبة مع الوراقين والناسخين وبرع فى ذلك رجال مشهورون كخالد بن أبى الحجاج (كاتب الخليفة الوليد ابن عبد الملك) ، وياقوت الحموى ، وابن البواب الذى اتبع الطريقة التى أدخلها الوزير ابن مقلة فى أوائل القرن العاشر الميلادى ، ثم نقحها وزاد عليها وكساها طلاوة وحسنا ، حتى اعترف الخلف بتفرده فى الصناعة وساروا على منواله ينسجون

من الحافظة الى التقييد

يقول العارفون المتقدمون كالذهبى وابن خلدون والمقريزى

ومن تبعهم أن قوة الحافظة العربية كان من أثرها اهمال شأن التقييد فقد لبث العرب بعض قرون يعتمدون على ذاكرتهم . ولا يستعينون بأقلامهم ، شأنهم فى ذلك شأن الذكى الحافظ : يسمع الشيء فيلتقطه ولا ينساه لايحتاج الى مذكر ، ولا يفتقر الى ضابط وثبت هذا الرأى فى الأذهان ، وتناقلته الافواه . ومضى زمن طويل والناس يلهجون به . وإذا اشبرنجر Sprenger — من المستشرقين الذين خدموا العربية والاسلام — يصفق طربا وابتهاجا حين يعثر على كتاب للخطيب البغدادى اسمه «تقييد العلم» (١) فقد وجدفيه شواهد تنبذ الرأى القديم ، وأخبارا تؤيد استخدام المسلمين لاقلامهم فى كتابة العلم المحمولة عن نبيهم .

---

(١) شرعنا فى طبع هذا الكتاب بمؤازرة المعهد الافرنسى للدراسات الاسلامية وفى مجموعته ، وسيصدر عما قريب . والمقدمة التى وضعناها له تتصل ببحثنا هذا موسعة بعض فصوله وملخصة بعضها الآخر .

أنشأ مقالا موسعا حول اكتشافه ، وتناقل المستشرقون ماوجده وعثر علماء العرب المعاصرون على شبيه ما استخرج ، فكانوا بين مقتنع ومجادل: ولما صنف « كولدزيهر » Coldziher المستشرق الكبير كتابه وعنوانه « الأبحاث الإسلامية » Muhàmmadanische Studien سخر من القائلين بأن العرب امتنعوا عن الكتابة دهراً طويلا . ولكنه بعد أن فعل ذلك ، تأمل فى الأخبار التى عرضها سلفه « اشبرنجر » نقلا عن الخطيب البغدادى وغيره ، فوجدها تارة تقول بأن الرسول أجاز كتابة العلم وطورا تدعى بأنه نهى عنها وتذكر مرة أن الصحابة حضوا عليها ثم لاتلبث أن تروى كراهتهم لها وتعرض كتب بعض التابعين للعلم . ثم تذكر استنكاف بعضهم الآخر ، رأى ذلك فظن بهذه الأخبار سوءا وأراد أن يرى خلالها يد الوضع والتزوير . فتصور حزبين متناضلين اتخذا من هذه الأخبار سلاحاً يذود كل منهما به عن رأيه ويدفع خصمه فقال : ان أهل الرأى الذين اعتمدو فى وضع فروع الشريعة

على عقلهم وأهملوا شأن حديث رسول الله — كان من حججهم أن الحديث لم يكتب دهرا طويلا فغابت معالمه وتشتت أمره وأبدوا رأيهم بأخبار اختلقوها تثبت أنه لم يكتب . ولم يقف خصومهم واجمين بل فعلوا فعلتهم ، واختلقوا الأخبار تأييدا لقولهم فنسبوا الى الرسول أحاديث فى إباحة الكتابة

عرس « كولدزيهر » ذلك مؤمنا متتبعا غير أنه لم يسند رأيه ببرهان بل ظنه أمرا بديهيا وحقا ظاهرا فكان للمعترض أن يسأله إذاً : لماذا آثر القول بأن الحديث دون بعد أن ثبت عنده أن الكذب دخل فى أخبار التدوين وللمعترض أن يتشدد أكثر من ذلك فيقول : إن الظن بحدوث الوضع فى الاخبار والوقوف عند الظن يقضى على التاريخ قضاء مبرماً ذلك الى أنه لايغنى من الحق شيئا وما كان أولى بكولدزيهر — أن يكشف عن الأخبار الضعيفة فيزدريها ، ويبين الأخبار الصحيحة فيعتمد عليها لكنه لم يفعل شيئا من ذلك بل اعتصم بالتناقض واعتقد الوضع .

ولما أردنا أن نعوض مافاته ، نظرنا فى رواة أخبار من نهى عن الكتابة وإذا نحن لانجد أى دليل على رأيه فلم نلق بينهم من اشتهر بتعصبه للرأى بل وجدنا بين من ذكر لنا إقباله على الكتابة وأخذه بها كثيرا ممن انتموا إلى أهل الرأى . فصح لدينا خطأ كولدزيهر فيما أثبته ورواه فطفقنا نفكر فى الوجه الذى نزيل به التناقض فنقول تارة : لعل العلماء انتظموا فى حزبين ، فحزب كره الكتابة ، وحزب أباحها ، يدفع كل منهم الى إلى ذلك ميوله وأهواؤه وحين نرجع الى الاخبار التى جمعناها نجد فيها ماينقض وجود التحزب بسائق الاختصاص والمحبة ثم نقول طورا : لعل للبيئة والوطن ومحل إقامة العلماء أثراً فى الاخذ بأحد الرأيين وترك الآخر ونرجع الى أخبارنا فنرى أهل البلد الواحد مختلفين فيما بينهم . ثم نقول تارة أخرى : لعل الصحابة هم الذين نهوا وغيرهم أباح فاذا بعض الصحابة يبيح ، وبعضهم الآخر يكره ، بل إن بعض الصحابة يبيحون ويكرهون بعد أن نفترض كل ذلك ، فلا نقابل إلا

الفشل يخطر ببالنا أن نوزع الاخبار على الاجيال والعصور التى توالت علمها تشير الى التطور وتنبىء عن الاختلاف .

فليس عجيبا أن يتطور موقف المسلمين من الكتابة وتقييد العلم ، محبة وبغضا رغبة وكرها ، تساهلا واقبالا تبعا لاجيالهم . فيمتنع جيل منهم عن الكتابة ويتسامح جيل آخر ويحبذ جيل ثالث ويستنكر جيل رابع . وكل الامر أن يحدد الباحث هذه الاجيال وأن يميز بينها . غير أن الامر ليس من السهولة بحيث تصورنا ، فقد اصطدمنا بتصانيف القدماء للأجيال وزعوها طبقات : يعددون ستا منها منذ عصر الرسول حتى بداية الخلافة العباسية . وهى تدل عندهم على ستة أجيال توالت خلال ١٤٠ سنة . ووزعنا أخبارنا على هذه الطبقات فلم نر بغيتنا وعدنا نتعثر بأذيال الأمل المفقود على أننا لم نيأس وأمعنا النظر فى تصنيفهم فوضح أنه إن حسن من جهة فقد ساء من جهة أخرى : حسنة أنه يبين تتالى العلماء على التصدر فى حلقات العلم تخلف طبقة منهم طبقة

فيكون من ذلك ست طبقات حتى أوائل الحكم العباسى أما سوؤه فهو أنه يدرج طبقتين فى جيل واحد. فلئن كان حقا أن نشاط العالم وتصدره بين ذويه لا يمتد أكثر من عشرين عاماً على ما اتفقوا عليه — فنشره له وأخذ الناس عنه ورجوعهم اليه يمتد حتى أربعين عاما . والذى يهمنا فى بحثنا وتصنيفنا للطبقات أن نحدد الجيل بمقدار ما يستطيع أن يعمل فى سبيل العلم لا بمقدار ترأسه له ولذلك وجب علينا أن نجعل الجيل أربعين سنة .

يقول الأديب يوسف العش إن نتيجة بحثه فى هذا الموضوع قد أسفرت عن تقسيم الاجيال إلى خمسة : ١ — عهد الرسول : وينتهى بوفاته و ٢ — عهد الخلفاء الراشدين : وينتهى قريبا من وفاة آخرهم على بن أبى طالب سنة ٤٠ هـ و ٣ — عهد الصحابة المتأخرين ، والتابعين الأولين : وينتهى حوالى سنة ٨٠ هـ ، أى فى أواخر عهد عبد الملك بن مروان و ٤ — عهد التابعين المتوسطين : وينتهى حوالى سنة

١٢٠ هـ ، فى أواخر خلافة هشام بن عبد الملك و عهد التابعين المتأخرين وينتهى حوالى سنة ١٦٠ هـ ، بعد انتقال الخلافة الى بنى العباس .

أما عصر الرسول المعظم فان الاحاديث التى وردت عن رسول الله فى الكتابة فمبيحها تارة وتاركها تارة أخرى . حتى إذا رفعنا منها كل مايبدو ضعيفا بقى عندنا حديثان صحيحان : أحدهما عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لاتكتبوا عنى شيئا سوى القرآن فمن كتب عنى غير القرآن فليمحه » أما الحديث الآخر عن عبد الله بن عمرو بن العاص فقد قال : « كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهتنى قريش فقالوا إنك تكتب كل شىء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله بشر يتكلم فى الغضب والرضى فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « اكتب فوالذى نفسى بيده ماخرج منى إلا حق » ويؤيد

الحديث الأخير الخبر الصحيح المروى عن أبى هريرة حيث يقول : مامن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . أكثر حديثا منى إلا ما كان عن عبدالله بن عمرو فأنه كان لا يكتب وكنت لا أكتب .

تدوين الحديث والقرآن

هذان الحديثان — عن أبى سعيد وعبدالله بن عمرو يبدوا متناقضين ، مع أنهما من الأحاديث الصحيحة ، فماشأن هذا التناقض ؟ ليس لنا إلا أن نستفيد مما قاله الخطيب وأسلافه وأن نفصل قولهم بعض التفصيل فنقول بديهى ألا يمنع الرسول كتابة حديثه مرة ، ثم يبيحه تارة أخرى ، إلا إذا لم يكن فى الإباحة ما ينافى المنع . ولماذا يمنع الرسول كتابة الحديث عنه دون القرآن ؟ إن ذوى

العلم يعرفون أن الكتابة كانت قليلة فى العرب آنذاك ، وأن من كان يكتب ، لم يكن يحسن الكتابة ، ويتقن التدوين ، بل كان يفعل ذلك متعباً مجهداً نفسه ، باذلا وقتاً طويلا ، فى عدد من الأسطر يكتب عليها ، فلا يفرغ منها إلا وقد أفرغ جهده معها . وإذا كان الأمر كذلك أفيؤثر الرسول حديثه على القرآن ، فيدع الصحابة يضيعون فراغهم به فيحاولون تدوين كتاب الله ؟ ثم ألا يخشى ، إن كتب الحديث مع القرآن فى الصحف . أن يختلط به ويلتبس . والقوم ليسوا من الحذاقة فى الكتابة بحيث يفصلون بين القرآن والحديث برموز أو تصنيف او تنسيق فسبب المنع إذاً خشية الانكباب على الحديث دون القرآن وخوف التباسه به . وبعد فهل يتنا فى ذلك مع إذن الرسول لعبد الله بن عمرو بكتابة الحديث ؟ ليس من تناف ، تناقض إذا عرفنا أن عبد الله بن عمرو كان يحسن

الكتابة ويتقنها . فيستطيع بعد أن يفرغ من الآيات المنزلة ، أن يكتب غيرها دون بذل جهد أو إضاعة وقت وفى إحسانه للكتابة ضمان من أن يخلط بين القرآن والحديث .

هذا التعليل المنطقى الواقعى لأسباب المنع وإمكان الإباحة . يجد مصداقا له فيما روى عن الصحابة

وبعد فمن الواجب ألا نقتصر على التعليل . بل نتعدى ذلك الى تحديد ما دونه عبد الله بن عمرو . وقد ذكر الخطيب لنا ما دون فى صحيفته التى كان يسميها الصادقة ويحرص عليها حرصه على نفسه - فاذا به أدعية وصلوات كان يحب أن يحفظها .

على أن ذلك ليس كل ما كتب عن الرسول . فقد أملى عليه السلام كتباً فى الشرائع والأحكام ؛ جهز بها رسله وعماله فى الأقطار المفتوحة ومعظمها فى الصدقات

والفرائض ولفظ الإيمان ، وبالجملة لايتعدى ما كتب عن الرسول فى عصره عشر صفحات ، فى أمور يجب أن تحفظ بنصوصها سالمة كيلا يعتورها التغيير أو التشويه . أما ماسوى ذلك ، فقد نقله الصحابة عن الرسول حفظاً ، أو عملا تعلموه فأتقنوه ، ثم رووه بعد ذلك بلفظهم وفقههم .

ذلك كان حال التدوين فى عهد الرسول ؛ حتى إذا انتقلنا إلى عصر الصحابة الأولين وهو عصر الخلفاء الراشدين ، كانت الكلمة متفقة على كراهة تدوين الحديث سوى كتب الرسول التى ذكرناها . بل وجدنا الصحابة يتتبعون الكتب فيحرقونها . وانا نعثر فى أقوالهم على مايفسر لنا موقفهم وموقف الرسول معهم : هذا أبو سعيد الخدرى يمتنع عن إكتاب أبى نضرة ويقول : أتتخذون الحديث قرآنا أتجعلونه مصاحف تمرأونها إنا لانكتبكم ولا نجعلها مصاحف . وهذا ابن عباس يقول : إنا لانكتب فى الصحف إلا الرسائل والقرآن ويبدو صريحا من ذلك أن الصحابة الاولين أبوا أن يجعلوا الحديث

شبيها بالقرآن : يكتب فى الصحف فيشتبه بكلام الله ويضاهى به . وتضربون لنا الامثال عما جرى للامم القديمة التى كتبت الى جانب كتاب الله كتبا أخرى فضلت بها وتركت كتاب الله . وها كم عمر بن الخطاب وقد عزم على كتب السنن . ثم وجد أن عليه ألا يلبس كتاب الله بشيء فترك كتب الحديث وأمر باحراق ما كتب الناس منه .

وفى رأى الصحابة هذا إيضاح لنهى الرسول عن الكتابة فالمؤمن الذى لايجد متسعا من الوقت لنسخ القرآن وكتابته ؛ حرى بألا يكتب الحديث حتى إذا كتبه كان كمن يقدم كلام الله وحاشاه من ذلك : هذا وسبيل الاشتباه قريب بينهما إذا كتبهما مبتدئون بمعرفة الكتابة على صحف متشابهة ولم يكن القرآن قد جمع فى المصحف أو أذيع تدوينه فيه .

موقف الصحابة الأولين صريح واضح لاالتباس به . استنوا فى ذلك بهدى الرسول وأقواله وأفعاله .

وإذا كان هذا الموقف صحيحاً وجب أن يتغير رأيهم إذا

بطلت أسباب منعهم . ولقد كان الأمر كذلك فهاهو ذا القرآن يجمع فى المصحف بين دفتين أو فى الكراريس المجلدة وهاهى ذى طبقة من العلماء تبذل نفسها لنسخه ونشره بين الناس . وهاهو ذى الصحف تفرغ منه . ويرافق ذلك انتشار الكتابه وكثرة الذين أتقنوها . وذلك فى عهد الصحابة المتأخرين بعد عصر الخلفاء الراشدين من سنة ٤٠ إلى حوالى سنة ٨٠ فهل تبدل موقف الصحابة الذين شهدوا الجيل الماضى وعاشوا إلى مابعده ؟

لقد عدلوا عن رأيهم السابق وتغير موقفهم بتبدل الحال .

قال أبو سعيد الخدرى : كنا لانكتب إلا القرآن والتشهد . ويدل ذلك على أنهم أصبحوا يكتبون غيرها . وهذا عبدالله بن عباس يتخذ صحفاً فيها قضاء على ويكتب تفسير القرآن بعد أن كره الكتابة ونهى عنها . كل ذلك لأن الخشية من مضاهاة العلم للقرآن والتباسه به وتقدمه عليه امتنعت

حين أصبح القرآن لا يكتب إلا بين دفتين فيحفظ فيهما وحين كثر نساخه وبطلت كتابته بالصحف . وأى ضرر يحصل الآن فى كتابة الحديث فى صحف ، تضيع ولا تخلد خلود المصاحف ؟ بطلت المضاهات والالتباس فجاز التدوين . أما إذا عاد فيعود النهى . اسمعوا الضحاك يقول : « لا تتخذوا للحديث كراريس ككراريس المصاحف . وها كم ليثاً وابراهيم ومجاهداً يكرهون كتابة العلم فى الكراريس إذ يصبح العلم قرانا ، والكراهة انما هى من ذلك . ولقد تشدد بعضهم فأراد ألا يكون سبيل للشبه أبداً . فأحل كتابة العلم فى الأطراف — أى على أطراف العظام فقط — كابراهيم النخعى فهى صعبة الحفظ والمضاهاة بينها وبين الكراريس بعيدة وخشى بعض التابعين مما خشى منه بعض الصحابة الأولين أى من العناية بالصحف وتناقلها والاشتغال بها عن القرآن فمنعوا من تخليد الكتب . وكان عبيدة يمحو كتبه ويقول أخشى أن يليها أحد من بعدى فيضعوها فى غير

واضعها . وقال لابراهيم : لاتخلدن عنى كتاباً . وكان طاوس يأمر باحراق الكتب ، وكان بعضهم يكتب الاحاديث ثم يمحوها ومنهم من ندم على ذلك .

اذا أمعنا النظر في أسماء من امتنعوا عن اكتاب الحديث كعبد الله بن عمر وابراهيم التيمى وجابر بن زيد وسعيد بن المسيب وابراهيم النخعى وعبيدة وطاوس والقاسم وغيرهم كثير وجدناهم جميعا فقهاء ولم نلق بينهم الا من اتصف بالفقه والافتاء . ووجدنا المحدثين جميعا يجيزون اكتاب العلم

وهناك أخبار تروى كراهتهم لكتابة الرأى كاعتذار زيد ابن ثابت عن أن يكتب عنه كتاب مروان فقدقال : يامروان عذراً انما أقول رأيي . وجاء رجل الى سعيد بن المسيب وهو من الفقهاء الذين روى امتناعهم عن الاكتاب فسأله عن شيء فأملاه عليه ثم سأله عن رأيه فأجابه فكتب الرجل فقال رجل من جلساء سعيد : أيكتب ياأبا محمد رأيك فقال سعيد للرجل : ناولنيها فناوله الصحيفة فخرقها .

وقيل لجابر بن زيد : انهم يكتبون رأيك قال : تكتبون ماعسى أن أرجع عنه غداً ؟ وكل هذه الأقوال رويت عن علماء حدث المؤرخون عنهم أنهم كرهوا اكتاب الناس وهى تدل دلالة صريحة على أن الكراهة ليست فى كتابة العلم أى الحديث بل فى كتابة الرأى وأن الاخبار التى وردت فى النهى دون تخصيص انما قصد بها الرأى خاصة .

ومحصل القول أن كتابة الحديث أصبحت أمرا مباحا فى هذا العهد وأن الذين تناقلوا الحديث حفظا لا يتجاوز عددهم بضعة رجال . ولم يقف الأمر عند كتابة الحديث فقط . بل تعداه الى وضع الكتب فقد جمع فى هذا العصر مما انتهى الينا ذكره أكثر من سبعة كتب فى تفسير القرآن ، وأكثر من عشرين فى السنن وأكثر من ثلاثة فى الفرائض والوصايا . على أن هذه الكتب ليست ككتبنا التى نعرفها إنما هى صحف متفرقة منشورة

تلف وتدرج لم تقسم على الأبواب والفصول ويجمل القول أن هذه الكتب أصبحت من الكثرة بحيث رويت لنا أخبار عن كتب فلان وفلان وبلغت كتب ابن عباس حمل بعير ونقلت كتب أبي قلابة الى أيوب فأدى كراء نقلها بضعة عشر درهما .

ثم يقول الاستاذ يوسف العش أنه بعد الذى ذكرنا من انتشار الكتب فى عصر التابعين الاولين لن ندهش . اذا رأينا الطبقة الوسطى من التابعين من سنة ٨٠ ١٢٠ بالتقريب يكتبون العلم ويكتبونه فلا يبلغنا عنهم النهى عن الكتابة اللهم الا أن يكون عن عمرو بن دينار ذكر عنه أنه حرج على من يكتب عنه ولكنه انما حرج كتابة رأيه فقد كان يقول متذمراً : يسألوننا عن رأينا فنخبرهم فيكتبونه كأنه نقر فى حجر .

حدث الاتفاق فى عصر التابعين المتوسطين على

كتابة الحديث وإكتابه : ذلك أنه لم يعد من خشية على القرآن قط بل إن كتابة الحديث اتخذت فى هذا العصر صفة رسمية فها كم عمر بن عبد العزيز يوعز الى أبى بكر بن حزم عامله فى المدينة أن يكتب له حديث رسول الله ويتوفى قبل أن ترد الكتب التى دونها ابن حزم ويأمر أيضاً محمد شهاب الزهرى بأن يكتب السنن فكتبها دفاتر فأرسل الى كل أرض دفتراً . وكان هذا اول تدوين رسمى للحديث . واقتدى خلفاء بنى أمية بعمر بن عبد العزيز فهذا هشام بن عبد الملك يرسل كاتبين الى بن شهاب يلازمانه سنتين فيكتبان عنه ما يتحدث به وهذه الدفاتر تحمل من خزائن الوليد بن يزيد حين قتل وفيها الكثير من علم الزهرى وبالغ الناس فى الكتب التى نقلت عن الزهرى حتى قيل إن الامام مالك بن أنس كتب عنه كتباً ملأت صناديق عديدة .

أيا كان من ذلك فالصحف قد كثرت فى هـذا العصر حتى صار المحدث يسمع الى تلاميذ وهم يقرأون الكتب عليه وهو يصححها لهم ووضعت الكتب فى مواد العلم وعددها كثير يقصر المجال عن تعدادها . على أن هذه الكتب لم تصنف الأبواب تصنيفاً متسعاً ولا وزعت على فصول خاصة وعناوين مفردة اللهم إلا فى كتب المغازى التى درجت الأخبار فيها على ترتيب الغزوات بتتابع تاريخ حدوثها

وتنشأ طبقة التابعين المتأخرين فى عصر ملىء بالكتب وفشت فيه الكتابة وشرع فيه بالتصنيف . نشأوا فى هذا العصر ولكنهم ما كادوا يترأسون فيه العلم حتى رأينا عدداً كبيراً منهم يخالف نشأته ويثور على ما اعتاد عليه فيطلب هجران الكتب وينحو باللائمة على الكتابة ويندب زمن الصحابة الذين حرصوا على أن يحفظ العلم فى

الصدور لا فى السطور

الأوزاعى شيخ العلم فى الشام . يندب الحالة التى أفضى إليها العلم . فيقول . « لما صار العلم الى غير أهله » . وهذا ابن عون البصرى ينعى أثر الكتب فيقول . « هذه الكتب ستضل الناس » . ويستشهد ابن علية البصرى بحال الصحابة . فيقول : « إنما كرهوا الكتابة لأن من كان قبلكم اتخذوا الكتب . فأعجبوا بها . فكانوا يكرهون أن يشتغلوا بها عن القرآن » . والحق يقال أن بعض ما خشيه الرسول والصحابة والتابعون الأولون . وهو أن يضاهى كتاب الله بكتاب غيره . فى شكله وكثيرة تداوله . قد وقع فعلا . فقد أقبل بعض الناس على كتابة الحديث بالمصاحف أى بالكتب المجلدة . ولعل أول من روى عنه شىء من ذلك خالد الكلاعى من أهل الجيل السابق . فقد كان عليه فى مصحف له أزرار وعرى .

وكثرت كتابة الأحاديث وتداولها فى الجيل السابق . وغالى أهل الجيل الذى بعده فى ذلك مغالاة بعيدة .

لاعجب إذاً إن ظهر من التابعين المتأخرين من خاف شر هـذه الكتب المحدثة . التى ضاهت كتاب الله فى شكلها وتداولها . وأراد بيد هـذه البدعة الخطيرة . والرجوع إلى بساطة عصر الصحابة حيث كان الحفظ يقوم مقام الكتابة . وزادهم تمسكا برايهم أن الحفظ قد خف كثيراً . حينما اعتمد الناس على الكتب ، وساءت الذاكرة وظهر الاضطراب فى الرواية بلا كتاب

رأى بعض التابعين المتأخرين ذلك فعمدوا منذ أواخر الجيل السابق الى الاعتصام بالحفظ وترك الكتابة فكان سعيد بن عبد العزيز يعتز بذلك قائلا . ما كتبت حديثا قط يعنى أنه كان يحفظ . وكان من لا يقدر على الحفظ سماعا يكتب الحديث فاذا حفظه محاه كخالد الحذاء وسيفان

الثورى وعاصم بن ضمرة وحماد بن سلمة ورويت الأخبار عنهم فى التنكر على من يعتمدون على الكتاب دون الحفظ حتى قال سيفان بئس مستودع العلم القراطيس .

ولعل هذا الاختلاف هو مما دعا « كولدزيهر » الى القول بأن العلماء انقسموا إلى طائفتين متخاصمتين فى شأن جواز الكتابة أو عدمها على أنه لم يصب حين قال : إن من ادعى عدم جواز الكتابة هم أهل الرأى وان مخالفيهم هم من أهل الحديث فالخلاف لم يكن بين هاتين الفئتين لأن من أهل الرأى من امتنع عن الكتابه كعيسى بن يونس وحماد بن زيد وعبد الله بن ادريس وسفيان الثورى وبينهم من أقرها كمعاذ بن سلمة والليث بن سعد وزائدة بن قدامة ويحيى بن اليمان وغيرهم . ومن المحدثين من كره الكتابة كابن علية وهشيم بن بشير وغمسم بن ضمرة وغيرهم ومنهم من أجازها كبقى الكلاعى وعكرمة

ابن عمار ومالك بن أنس وغيرهم .

مدارس الدولة العباسية

ذهب الذهبي الى أن « نظام الملك » الذى استوزر للسلاجقة من سنه ٤٥٦ إلى سنة ٤٨٥ هـ هو أول من أنشأ المدارس فبنى مدرسة ببغداد ومدرسة ببلخ ومدرسة بنيسابور . ومدرسة بهراة . ومدرسة بأصبهان ومدرسة بالبصرة . ومدرسة بمرو . ومدرسة بآمل طبرستان . ومدرسة بالموصل . ويقال إن له فى كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة . وقد رد عليه بعض المؤرخين هذا القول كالسبكى والسيوطى وغيرهما . وقالوا كانت المدرسة البيهقية بنيسابور قبل أن يولد نظام الملك والمدرسة

السعدية بنيسابور الامير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود (١) ألخ

وذكر المقريزى : « أن الخليفة المعتد بالله « ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ » لما أراد بناء قصره فى الشماسية ببغداد استزاد فى الذرع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد فسئل عن ذلك فذكر أنه يريده ليبنى فيه دوراً ومساكن ومقاصير يرتب فى كل موضع رؤسا كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعلمية ويجرى عليهم الأرزاق السنية ليقصد كل من اختار علما أو صناعة رئيس مايختاره فيأخذ منه » . ثم قال : « إن المدارس مما حدث فى الاسلام ولم تكن تعرف فى زمن الصحابة ولا التابعين وإنما حدث عملها بعد الاربعمائة من سنى الهجرة وأول من

« ١ » ضحى الاسلام : أحمد أمين جزء ٢ ص ٤٩ ومابعدها

حفظ عنه أنه بنى مدرسة فى الاسلام أهل نيسابور فبنيت بها المدرسة البيهقية . وانما كانت هناك معاهد أخرى .

الكتاب والجمع الكتاتيب - وقد اختلف اللغويون فى فى وضعها الأصلى ففى اللسان: « الكتاب والجمع الكتاتيب والمكاتب » . وقال المبرد : « المكتب موضع التعليم والمكتب موضع التعليم والمكتب المعلم والكتاب الصبيان ومن جعل الموضع الكتاب فقد أخطأ » ولكن يظهر أن كلا من الكتاب والمكتب استعمل فى هذا العصر لمكان تعليم الصبيان فقد روى الاغانى عن إسحق الموصلى أن أباه « ابراهيم الموصلى » « اسلم الى الكتاب فكان لا يتعلم شيئا ، ولا يزال يضرب ويحبس ولا ينجع ذلك فيه فهرب الى الموصل وهناك تعلم الغناء » « ١ » . وجاء فى

---

١ ـ الأغانى ٥ / ٣

موضع آخر : « أن على بن جبلة لما نشأ أسلم فى الكتاب «٢» وروى الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين أن من أمثال العامة « أحمق من معلم كتاب » « ٣ » .وقال ابن خلكان فى ترجمة أبى مسلم الخراسانى : « أنه نشأ عند عيسى بن معقل فلما ترعرع اختلف هو ووالده الى المكتب » (٤) وكان ذلك فى العصر الأموى بالضرورة . وبعض المكاتب كان لتعليم مبادىء القراءة والكتابة والقرآن وبعضها كان يعلم فيه أيضاً اللغة وما اليها . قال ابن قتيبة : « ومن المعلمين علقمة بن أبى علقمة مولى عائشة كان يروى عنه مالك ابن أنس: وكان له مكتب يعلم فيه العربية والنحو والعروض ومات فى خلافة أبى جعفر المنصور » (٥) . وبعض

---

٢ « أغانى ١٨ / ١٠١ ٣ « جزء ١ / ٢٠٨

٤ « ابن خلكان ١ / ٣٩٧ ٥ « كتاب المعارف ١٨٥

المعلمين كانوا يعلمون حسبة : لا يأخذون على تعليمهم أجراً . روى ابن قتيبة : أن الضحاك بن مزاحم وعبد الله بن الحارث كانا يعلمان ولا يأخذان أجراً ، (١) وبعضهم كان يأخذ اجراً ومن هؤلاء من كان يأخذ خبزاً من الصبيان

ورووا عن الشافعي انه قال : « كنت يتيما في حجر امي فدفعتني في الكتاب ولم يكن عندها ما تعطي المعلم ، فكان المعلم قد رضي مني ان اخلفه إذا قام فلما ختمت القرآن دخلت المسجد فكنت اجالس العلماء : وكنت اسمع الحديث او المسألة فأحفظها ولم يكن عند امي ما تعطيني اشتري به قراطيس : فكنت إذا رأيت عظماً يلوح آخذه فأكتب فيه الخ » (٢)

وكان في الكتاب ضرب وحبس كما رأيت فيما روى

---

١) كتاب المعارف ١٨٥ ٢) جامع بيان العلم ١/٩٨

الأغانى عن ابراهيم الموصلى

ومنها المسجد - وقد كان اكبر معهد للدراسة فلم تكن المساجد للعبادة وحدها ولكن كانت تؤدى فيها اعمال مختلفة فهى مكان للعبادة تقام فيه الصلاة وتخطب الخطب وكان محكمة للتقاضى والذى يهمنا الآن انه كان معهداً للدراسة بل اكبر معهد فكان مسجد عمرو فى مصر ومسجد البصرة ومسجد الكوفة والحرم المكى والمدنى وغيرها من المساجد تقوم مقام المدارس والجامعات فى هذا العصر

فمن مبدأ الاسلام اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد للدراسة ففى البخارى عن ابى واقد الليثى قال: «بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد اذ اقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى

احدهما فرجة فى الحلقة فجلس وجلس الآخر خلفهم«١»الخ

واستمر المسجد كذلك مكانا لتعليم القرآن والحديث وللقصاص يعظون والفقهاء يعلمون الفقه مدة العهد الأموى فيذكر ابن خلكان ان ربيعة الراى كان يجلس فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ويجلس فى حلقته مالك ابن انس والحسن واشراف اهل المدينة ويحدقون به «٢» وكان مسجد البصرة مركزاً لحركة علمية كبيرة فى العهد الأموى فحول الحسن البصرى وفى حلقته نشأت المباحث الكلامية واعتزل واصل بن عطاء حلقة الحسن وكون له حلقة بل كان هناك بجانب حلقات علوم الدين حلقات لعلوم العربية . قال ياقوت : « كان حماد بن سلمة

«١» البخارى كتاب العلم

«٢» ابن خلكان ١ / ٢٥٧

بن دينار يمر بالحسن البصرى فى الجامع فيدعه ويذهب الى اصحاب العربية يتعلم منهم » « ١ »

وكان الخلفاء والامراء والأغنياء يتخذون لأولادهم معلمين خاصين فشرقى بن القطامى « كان وافر الأدب عالما بالنسب أقدمه أبو جعفر المنصور ليعلم ولده المهدى الأدب » (٢) والمفضل الضبى كان يؤدب المهدى وقد جمع له المفضليات والكسائى « كان يؤدب الأمين بن هرون الرشيد ويعلمه الأدب (١) » وأبو محمد يحيى بن المغيرة اليزيدى لقب اليزيدى لأنه صحب يزيد بن منصور خال المهدى يؤدب ولده فنسب اليه ثم اتصل بالرشيد فجعله مؤدب المأمون وكان الفراء يؤدب ولدى المأمون وكان ابن السكيت يؤدب ولد ابن طاهر وجعل له خمسمائة درهم ثم جعلها ألفا . إلى كثير من أمثال ذلك

---

(١) معجم الأدباء ٤/١٣٥.
(٢) ابن الأنبارى ٤٢ (٣) ابن خلكان ١/٤٦٩

مجالس المناظرة : كذلك من أهم معاهد العلم مجالس المناظرة فى الدور والقصور والمساجد وبين العلماء وفى حضرة الخلفاء فى الفقه فى النحو والصرف وفى اللغة وفى المسائل الدينية ويدلنا ماروى لنا على أن هذه المناظرات أزهرت فى هذا العصر تبعاً لازدهار الشغف العلمى وطمعاً فى منائح الخلفاء والأمراء ونيل الحظوة عندهم ورغبة فى الوصول إلى الحق وإذ كانت أكثر المسائل العلمية لم تقرر بعد ولم تتخذ شكلا ثابتاً كان مجال المناظرات فسيحاً من الناحية العلمية البحتة وإذ كان الخلفاء والأمراء يساهمون فى الحركة العلمية ويشتركون فى الرأى ويؤيدون بعضاً ويفندون بعضاً استعد العلماء للمناظرة وتسلحوا لها رغبة فى الشهرة والحظوة وإذ كان الخلاف شديدا فى المذاهب الفقهية بين أنصار الرأى وأنصار الحديث وكان الخلاف شديدا بين الأمصار من بصريين وكوفيين وحجازيين وعراقيين وشاميين ومصريين وكانت العصبية شديدة . روى ابن الانبارى فى طبقات الأدباء أن المأمون

أمر الفراء أن يؤلف مايجمع به أصول النحو وماسمع من العرب فأمر أن تفرد له حجرة من حجر الدار ووكل بها جوارى وخدماً للقيام بما يحتاج إليه حتى لايتعلق قلبه ولاتتشوف نفسه إلى شيء ... صير له الوراقين وألزمه الامناء والمنفقين فكان الوراقون يكتبون حتى صنف الحدود وأمر المأمون بكتبه فى الخزائن فبعد أن فرغ من ذلك خرج إلى الناس » (١)

وأن هذه المكتبة كانت تقوم بنسخ الكتب كما كان يفعل علان الشعوبى وبترجمتها الى العربية كما كان يفعل يوحنا بن ماسويه وابن نوبخت وكان فيها رئيس للترجمين ومساعدون كما كان لها مدير وأعوان وكما كان فيها مجلدون فيقول ابن النديم ان ابن أبى الجريش كان يجلد فى خزانة الحكمة للمأمون» (٢)

وجاء فى دائرة المعارف الاسلامية : « كانت أول مكتبة

---

(١) طبقات الأدباء ١٢٧ وانظر كذلك ص ٦٦ من من ضحى الاسلام - ٢ - الفهرست ص ١٠

عامة هى مكتبة دار الحكمة (كذا) التى أنشأها المأمون (كذا) فى بغداد وجمع لها الكتب اليونانية من الامبراطورية البيزنطية وترجمت الى العربية وكانت المكتبة تحوى كل العلوم التى اشتغل بها العرب — وقد ظلت إلى مجىء التتار سنة ٦٥٦ هـ»(١).

وقد حاكى الخلفاء والامراء، الاغنياء من العلماء والادباء فكانت لهم مكتبات خاصة فيقول ثعلب: «رأيت لاسحق الموصلى ألف جزء من لغات العرب وكلها سماعه»(٢). ويقول ابن أبى أصيبعة: «كان محمد وأحمد ابنا موسى بن شاكر يكيدان كل من ذكر بالتقدم فى معرفة . . فدبرا على الكندى (الفيلسوف) حتى ضربه المتوكل ووجها الى داره فأخذا

---

(١) أنظر فى هذا البحث أيضا رسالة لمراد كامل فى هذا الموضوع ومقالة فى مجلة المجمع العلمى بدمشق سنة ١٩٢٧

(٢) ابن خلكان ١/٩٢

كتبه بأسرها وأفردها فى خزانة سميت (الكندية)»(١) .

مراحل التعليم العربى الاسلامى ومناهجه

يبدو أنه لم تكن هناك مراحل للتعليم معينة فليس هناك مرحلة للتعليم الاولى أو الابتدائى ومرحلة للثانوى وهكذا إنما كانت هناك مرحلة واحدة تبتدىء بالكتاب أو بالمعلمين الخاصين وتنتهى بأن تكون له حلقة فى المسجد ثم إنه كان من المتعلمين من يتم هذه المرحلة وقليل ماهم وآخرون يقفون فى نصف الطريق أو ربعه . فمن الناس من يتعلم فى المكتب حتى يقرأ ويكتب ويحفظ مايتيسر من القرآن ويحسن أمور دينه ثم ينصرف الى عمل من صناعة أو تجارة ومنهم من يلزم الشيوخ يأخذ عنهم وينتقل من شيخ إلى شيخ بل من بلد الى بلد حتى يكتمل علمه فيحلق له حلقة .

---

(١) ابن أبى أصيبعة ١/٢٠٧

كما لم يكن هناك منهج خاص تسير عليه الأمة فيكون الكتاب أحيانا مقتصراً فيه على القراءة والكتابة وتعليم القرآن ونرى المعلمين فى الكتاتيب أحيانا يعلمون اللغة والنحو والعروض وكل شيخ بعد ذلك له طريقته : فالفقهاء من أصحاب الرأى يكثرون من تفريع المسائل وفرض الفروض ويبيحون الأسئلة حتى فيما لم يقع من الحوادث وأصحاب الحديث يمتنعون عن ذلك ولا يجيزونه وهكذا . وفى المسجد الكبير حلقات من الدروس مختلفة الألوان : هذه حلقة فقه وبجانبها حلقة نحو وثالثة حلقة للمتعلمين ورابعة لإنشاد الشعر وخامسة لرواية الأخبار وسادسة للحديث وهكذا . والمتعلم حر أن يذهب إلى أية حلقة وإلى أى شيخ فاذا أتم علم شيخ انتقل إلى علم آخر أو شيخ آخر ويرجع هذا إلى أن التعليم حر لا تنفق الدولة عليه من مالها وليس فى ميزانيتها شيء خاص بالتعليم إلا ما تمنحه الخلفاء والأمراء والأغنياء لمن اتصل بهم من العلماء وفى مقابل ذلك ليس

للدولة تدخل فى وضع منهج أو مراقبة معلم إلا أن يتهم أحد بزندقة فتتدخل أحيانا . فالطلبة والعلماء يتعلمون ويعلمون على حسابهم الخاص فقد يدفع الطالب أجرا للشيخ على ما يتعلم منه كالذى حكى عن المبرد فقد حدث الزجاج قال : « اشتهيت النحو فلزمت المبرد لتعلمه : وكان لا يعلم مجانا ولا يعلم بأجرة إلا على قدرها فقال لى : أى شىء صناعتك ؟ قلت : أخرط الزجاج وكسبى فى كل يوم درهم ودانقان أو درهم ونصف وأريد أن تبالغ فى تعليمى وأنا أعطيك كل يوم درهما وأشرط لك كل يوم درهما وأشرط لك أن أعطيك إياه أبدا إلى أن يفرق الدهر بيننا ، استغنيت عن التعليم أو احتجت إليه . قال فلزمته وكنت أخدمه فى أموره مع ذلك وأعطيه الدرهم فينصحنى فى العلم حتى استقللت فجاءه كتاب بعض بنى مازمة من الصراة يلتمسون معلما نحويا لأولادهم فقلت له أسمنى لهم فأسمانى فخرجت فكنت أعلمهم وأنفذ إليه فى كل شهر ثلاثين درهما وأزيده بعد ذلك بما أقدر عليه » (١)

---

(١) معجم الادباء ١/٤٧

وقد يعلم المعلم ابتغاء الثواب وأكثر ما كان ذلك فى العلوم الدينية كالذى حدث ابراهيم الحربى المحدث الفقيه قال : « ماأخذت على علم قط أجرا إلامرة واحدة . فانى وقفت على بقال فوزنت له قيراط إلا فلساً . فسأ لنى عن مسألة فأجبته . فقال للغلام أعطه بقيراط ولا تنقصه شيئا . فزادنى فلسا »(١)

وقد يكون المعلم يتكسب من باب آخر ويعلم حسبة كأبى حنيفة . كان بزازا ويعلم فى المسجد وهكذا

كذلك كان باب التعلم مفتوحا لكل من شاء ؛ متى استطاع أهله أن ينفقوا عليه أو استطاع هو أن يجد مايقتات به . ولهذا نبغ كثير من الأدباء والعلماء من طبقات فقيرة ، كأبى العتاهية فقد كان خزافا ، وكان أبو تمام يسقى الناس بالجرة فى جامع عمرو بن العاص بمصر ، وكان أبو يوسف القاضى فى صباه قصارا ، وكان يهرب من القصار ويذهب إلى حلقة أبى حنيفة وأمثال هذا كثيرة

---

(١) معجم الادباء ٤/١٣٥ - ص ٦٨ ضحى الاسلام

ولم تكن هناك - أيضا - درجات علمية يمنحها من أتم الدراسة بعد امتحان. إنما كان الامتحان امتحان الرأى المحيط به من علماء ومتعلمين فمن آنس من نفسه الكفاية على أن يجلس مجلس العلم جلس وتعرض لجدال العلماء ومناقشتهم وتجييههم وكان فى هذا ما يكفى لحماية العلماء من المتطفلين والجاهلين فترى واصل ابن عطاء يعتزل مجلس الحسن البصرى لما خالفه فى الرأى وشعر من نفسه القدرة على أن يقرر مذهبه فأنشأ له حلقة. وأبو يوسف حلق حلقة فسأله سائل عن مسألة فقهية فلم يعرف جوابها فعاد إلى حلقة أبى حنيفة (١). ولهذا النظام عيوبه ومزاياه غير أنه كان ملائما لحالة ذلك العصر

---

(٢) مناقب أبى حنيفة للكردى

التعليم فى عهد المستنصر بالله

ليس يخفى ما كان من ازدهار العلوم فى عهد الدولة العباسية ومن ثم كثرة انشاء المدارس ودور التعليم فيها. ومما نذكره أنه فى عهد المنتصر بالله وهو أبو جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله، قد اتفق له ما لا يتفق لغيره «١» من أهل الخلافة وهم أبو الظاهر المستضىء بن المستنجد بن بن المقتنى بن المستظهر بن المقتدى وكان مولده يوم

«١» راجع ص ٢١١ وما بعدها تحت عنوان «المستنصر بالله» كتاب خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك تأليف الازلى عبد الرحمن سنبط طبع بمطبعة القدس سنة ١٨٨٥

الاربعاء ثالث عشر صفر من سنة ثمان وثمانون وخمسمائة أمه أم ولد اسمها إخشوم تدرك خلافته وقد بويع بالخلافة يوم توفى والده وهو الجمعة ثالث عشر رجب سنة ثلث وعشرين وستمائة وأول من بايعه أولاد انسادة الأمراء أبناء اخوته وأولاد عمه وذويه بصدور مشروحة عارفين بحقه مقرين بفضله وكان المتولى لأخو المتولى لأخذ البيعة على الناس أستاذ الدار أبو نصر المبارك بن الضحاك وبحضور نائب الوزارة ألقى وكانا واقفين على درج المنبر الذى نصب تحت قبة المبايعة وكان أبيض اللون مشربا حمرة مستنير البشرة واسع الصدر معتدل الخلق : نقش خاتمه : العفو منك أولى : وكان حسن السيرة جميل السريرة ذا علم وعفو وحلم يغشى الصالحين ويواصل المنقطعين وحسن فعاله مشاهد معلوم . مسدد فى أقواله موفق فى أفعاله ولقد تفرد بعزيمة وقعت دونها الهمم وانزاحت بها

المظالم والظلم وانتظمت بها الأمور وانصلح بها الجمهور وما زال الدين فى أيامه باهر المطالع عامر المراتع مواظب على الصلوات فرائضا ونفلا ويكثر من الصلاة إنعاما وفضلا يعظم أهل الدين وينفق على أربابه ويحب أهل الأدب ويقرب منه طلابه ومباره دارة عليهم وصدقاته واصلة اليهم وتنبهت الهمم فى أيامه وازداد المشتغلون بالعلوم رغبة واشتغالا ووسعهم بعطاياه العميمة كرما وافضالا وحن على الايمة حنو الشفيق فجبر كسرهم وفك أسيرهم وأحسن الى محسنهم وتجاوز عن مسيئهم فأصبح الدين ثابت الأركان رفيع البنيان ولقد شاع من مكارم أخلاقه ما زاد ضوء النهار الباهر والقمر الزاهر فسبحان الذى جعله سهلا فى طلاقة محياه وكرم سجاياه . فأما ما خصه الله تعالى به فى نفسه من الميل الى العلوم فانه لم يزل من أول أمره ومبدأ عمره متشاغلا بالعلوم الدينية

والادبيـــة منعكفاً على نقل الكتب حريصاً على ذلك مواظبا عليه: حسن الخط صحيح الضبط ومن محبته للعلوم أنشأ خزانة الكتب بشريف حضرته ومقدس سيرته جمع فيها من أنواع العلوم على اختلافها وتباينها وائتلافها بالاصول المضبوطة والخطوط المنسوبة ماجاوز حد الكثرة ثم أنشأ مدرسة على شاطىء دجلة وجعلها وقفاً على المذاهب الاربعة ليحصل بها كمال المنفعة فجاءت محكمة البناء سراخة فى الماء فسيحة الفناء وضعها غريب وحسن ترتيبها عجيب شامخة الى عنان السماء. تضحك شرافاتها بالسرور ويظهر فى أبنيتها الفرح والحبور ويلمع العز فى جوانبها ويطلع السعد من أساسها واعاليها فهى كعبة الأنام وقبة الاسلام بجمع سائر الدين ومذاهب المسلمين وعلم الاصول والفروع المتفرق فيها والمجموع وعلم القوانى وأحاديث الرسول ومعرفة الحلال والحرام وقسمة الفرائض والتركات وعلم الحساب والمساحات وعلم الطب

ومنافع الحيوان وحفظ قوام الصحة وتقويم الأبدان ، ولما تكملت أبنيتها كسيت بأفخر الملابس وتحلت كأحسن العرائس ورتب لها البوابين والفراشين والخدم والطباخين وأسكن لكل مذهب اثنين وستين من الفقهاء وجعل لهم مدارس وأربع معيدين(١) وأجريت لهم بها المشاهرات الوافرة وما يحتاجون اليه من الخبز واللحم والحلوى والفواكه والبزر والصابون وجعل فيها طبيب حاذق ماهر وأثبت عنده عشرة من الطلبة يشتغلون عليه فى لم الطب وجعل لهم الاكحال السائلة وبذيت لهم صفة فاخرة مقابلة للمدرسة يجلس فيها فيقصده المرضى فيداويهم وبنى فى حائط هذه الصفة دائرة عجيبة وصورها صورة الفلك وجعل فيها طاقات صغارا لها أبواب كلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب الطاقات وهو بذهب نضار مفضضا ومضت ساعة من الزمان والبندقتان من شبه يقعان من فم بازين من ذهب طاستين من ذهب ويذهبان الى

١- المعيد هو مساعد المدرس فى التعليم وقد عرفته المدرسة الاسلامية

مواضعها . وتطلع شموس من ذهب فى سماء زرقاء فى ذلك الفلك. ومع طلوع الشمس وتدور مع دوراتها وتغيب مع غيبوبتها فاذا غابت الشمس وجاء الليل فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها كلما مضت ساعة تكامل الضوء فى دائرة القمر ثم تبدو بالدائرة الاخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس

يقول مؤلف تاريخ بنى العباس الامام العالم تاج الدين على بن الحسن المعروف بابن الساعى أن هذه منقبة لم يسم اليهما الأولون . ثم جعل فيها خزانة الكتب ونقل اليها من الربوات الشريفة والكتب النفيسة والأصول المضبوطة المحتوية على جميع العلوم مائتين وتسعين حملا سوى مانقل اليها بعد ذلك وشرط أن يكون فى دار الكتب التى هى الخزانة ، عشرة يشتغلون بعلم الحديث النبوى ويكون لهم شغلان يشغلون الطلبة بعلم الحديث النبوى ورتب عندهم شيخ على الأستاذ يقرأ عليه الحديث : ثم الى جانب هذه المدرسة دار برسم تلقين القرآن المجيد يتربى بها ثلاثون صبيا أيتاما

يتلقون القرآن من شيخ ملقن ويكون لهم معبداً يحفظهم التلاقين وشرط للجميع من الخبز والمشاهرة والوظائف ماتضمنه شرط الواقف رحمه الله

ثم شرط أيضا أن يكون فيها من يشتغل بعلم العربية وكذا من يشتغل بعلم الحساب والفرائض ثم أنشأ قدس الله روحه من المشاهد والمساجد والربط والمفاوز والقناطر ووسع الطرقات إلى غير ذلك من الصدقات فى كل الأيام . وأعطى الثياب والخلع والجرايات فى شهر رمضان والرواتب فى سوى ذلك : وعموم هذه الأسباب العلماء والعباسيين والعلويين والضعفاء والمساكين وتزويج الايامى والحنو على اليتامى وذلك أكثر من أن يحصر

هذا وقد ورد فى الجزء الثالث من كتاب التمدن الاسلامى تأليف جورجى زيدان بك ص ٢٠٠ عنهوان المدارس تحت فى الاسلام — أن نظام الملك الطوسى الذى توفى مقتولا فى ٤٨٥ — ملك شاه السلجوقى

فى أواسط القرن الخامس الهجرى وأسس الرباطات للعباد والزهاد ونفقات ذلك ٦٠٠ ألف دينار سنويا ومدرسة ابن فورك المتوفى ٤٠٦ هـ والمدرسة البيهقية أى المنسوبة إلى البيهقى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ وكذلك فعل وابن طولون وعضد الدولة فى بغداد ، ونور الدين فى الشام وصلاح الدين أيضا فى انشاء المدارس ثم إن نظام الملك بنى أيضا مدارس فى بغداد وأصبهان ونيسابور وهرات وجعل حول المدرسة النظامية فى بغداد ، سوقا

فى المدارس الأندلسية

أما العرب الاندلسيون فقد أنشأوا مدارس فى قرطبة واشبيلية وطليطله وغرناطة ومالقة قال المقرى فى ج أول ص ١٠٤ وليس لاهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم بل يقرأون جميع العلوم فى المساجد بأجرة، فهم يقرأون لان يتعلموا لالأن يأخذوا جاريا . وإلى المدارس ، المارستانات ، المستشفيات ، للطب . ومن مكاتب بغداد ، بيت الحكمة ،

التعلم الجامعى الفنى والشعبى

فى ظن بعض الناس أن التعليم الجامعى هو الصورة الوحيدة لتنظيم التعليم العالى ؛ والواقع أن وقد حسبوا الأمر ليس كذلك ولم يكن يوماً ما كذلك ، - كما قدمنا - أيضاً أن الجامعة معهد يعلم فيه المعلمون جميع فروع المعرفة التى يطلبها الناس فى زمن ما ، وهذا أيضاً وهم لعل أصله ما يفهمه الناس من الكلمة الافرنجية التى اصطلحنا على تأديتها « بالجامعة » . والكلمة الافرنجية كما قد استخدمت للتعبير عن مدلول لم تكن له فى أول الأمر علاقة محتومة بالعلم ولا بالمتعلمين . فلم تقم أن الجامعة فى الأصل لتنهض بالدراسات العليا لذواتها ، إنما أنشئت الجامعات لتمد الملوك والكنيسة والحكومات والأمم برجال الدين والتعليم والقانون والطب . وعند الناس الى الاعتقاد بأن الجامعة معقل الثورة على القديم ، ويحبها قوم من أجل هذا ويكرهها آخرون . وتاريخ الجامعات يدل على كونها أقرب الى المحافظة منها الى التجديد . وحقيقة الامر

فى هذا وفى غيره من شئون التعليم الجامعى أن بين الجامعة والمحيط الذى نعيش فيه ارتباطا وثيقا فهى ، تزدهر بازدهاره وتجمد بجموده بل قل ان خلق الجامعة نفسه يحدث تبعا لمقتضيات الحياة الاجتماعية لقوم من الناس وان تطور الجامعة يجرى طبقا لتطور حياة القوم .

وعند الأستاذ شفيق غربال بك وكيل المعارف أن الجامعة كما نعرفها اليوم من انشاء العصور الوسطى فى المجتمع الأوربى والمجتمع الاسلامى وهى مما خلفته لنا بغداد والقاهرة وقرطبة وبولونيا وباريس واكسفورد لا مما ورثناه عن أثينا والاسكندرية وروما ، وقد يبدو غريبا أن اليونان والرومان بالرغم مما بلغوه فى الفلسفة والقانون لم ينظموا تعليمهم العالى تنظيما جامعيا بل اقتصر العلم عندهم على التفاف الطلاب حول أستاذ ذائع الصيت ، أو انشاء معاهد للابحاث العلمية قد يؤمها الطلاب ، دون أن يكون الغرض الأول من المعاهد تعليمهم . ولنا أن نتصور حوارا سقراطيا ممتعا يدور — مثلا — على

الاجازات الجامعية وعلى ماينبغى أن تكسب أصحابها من حقوق ! . أما مرجع عدم إنشاء الرومان واليونان الجامعات فهو أن حياتهم الاجتماعية لم تقتض أن يحيا الفرد فى كنف الجماعات الصغرى بل كان سلطان الدولة شاملا نافذا ، أقوى من أن ينمو فى ظله أى سلطان مصغر وهو كفيل بحماية الجميع أما العصور الوسطى فى الغرب والشرق على السواء فانها كانت عهد شدة وعنف اندثرت فيها المعالم وانطمست الرسوم وكان لابد الافراد من التماس القوة والأمن والطمأنينة فى حياة الجماعات فألفوها فى ذاك الزمان لشتى الاغراض ومن هذه الاغراض طلب العلم . وما « الجامعة » فى الاصل إلا مطلق « الجماعة » تنتظم فيها الطائفة من الناس من الحلاقين أو النجارين أو طلبة العلم أو المعلمين وكانوا ان أرادوا قصرها فى الجامعة بالمعنى المألوف أضافوا اليها أنها اجتماع المعلمين والتلاميذ

Societas magistrorumdiscipulorumque Universitas

أشرنا قبلا الى أن أول من انتظموا فى جامعة، كانوا طلبة العلم بمدينة بولونيا حين أحسوا بضرورة الاتحاد ليتقوا جشع أهل المدينة واشتطاطهم فى أجور المساكن وأثمان الحاجات وأمام إجماع الطلاب وتهديدهم بمغادرة المدينة لم يجد أهلها بداً من الاذعان والتزام المعقول فى المعاملة. قلنا مغادرة المدينة ولم يكن ذلك عسيرا فلم يكن هناك بناء جامعى ولا أى شىء آخر يربط طلب العلم بمكان بعينه، فكانت الدروس تلقى حيثما اتفق أما الجامعة فتنشأ حيث يستقر المعلمون والطلاب. هكذا نشأت اكسفورد وهكذا نشأت كامبردج. انتصر طلبة بولونيا على أهل المدينة بفضل كينونتهم وصيرورتهم أعضاء فى «جامعة» واستخدم الطلبة الاتحاد نفسه «الجامعة نفسها» فى تحديد علاقاتهم «بعملائهم» الآخرين: الاساتذة. وكان سلاحهم فى هذا «مقاطعة» المعلم. والمقاطعة سلاح ماض. فالاستاذ يعتمد على مايجبيه من تلامذته فكان لابد من الاذعان، وكان لابد له من أن يعطى ميثاقه بأن لاينقطع عن درسة الا باذن التلاميذ

ولا أن يغادر المدينة بدون ضامن يضمن عودته وألا ينقص عدد سامعيه عن خمسة فان نقصوا غرم مالا . وأن يبدأ درسه عند دق الجرس المؤذن بالانتهاء وألا يتجنب المسائل العويصة وأن يقسم أجزاء الموضوع تقسيما حسنا بين فصول السنة الدراسية .

وقد واجه المعلمون تلاميذهم بالنظام نفسه . فالفوا هم أيضا جامعتهم ، وكانت جامعة باريس - فى الأصل - وعلى نقيض بولونيا - جامعة من الأساتذة . وكانت الجامعة - سواء أكانت مؤلفة من الطلاب أم من المعلمين أم من الفريقين - تكتسب كيانها القانونى بموجب عهود تصدر عن الملوك أو من البابوات توضح واجباتها وحقوقها ، وأخص هذه الحقوق إجازة الطلاب

هذا وقد تمت فى داخل الجامعة نظم أخرى ، منها ما نشأ فى الأصل لايواء الفقراء من الطلاب وهى الاروقة أو المدارس الجامعة (colleges) وقد بلغ من شأنها فى

اكسفورد وكامبردج على الاخص انها تركزت فيها الحياة الجامعية بكامل نواحيها تركيزاً يكاد يكون تاماً وكادت ألا تترك للجامعتين إلا عقد الامتحانات ومنح الاجازات ، ومنها مانشأ لتنظيم الدراسات وتنسيقها وهى الكليات(faculies)

وكانت الدراسات فى نشأة الجامعات مقصورة على مجموعتين : الثلاثية (trivium) وتتكون من النحو والبلاغة والمنطق والرباعية (quadrivium) وتتكون من الحساب والفلك والهندسة والموسيقى . ثم نظمت الدراسات فى كليات أربع : الآداب والقانون والطب والالهيات . وكانت كلية الآداب إذ ذاك بمثابة كلية إعدادية للكليات الاخرى . ولا بدع فى ذلك فقد كانت إذ ذاك تقوم بما يقوم الآن التعليم الثانوى ولم يكن له وجود فى تلك الايام

أما مكان الجامعة فى الحياة الفكرية فى تلك العصور ، فيكفى أن نذكر انها كانت عصور « الايمان » ، « والايمان - كما قال انسلم (Anselm) - يسبق العلم ويعين حدوده ويقرر

شروطه . فأنا أومن لكى أستطيع أن أعرف » . وفى وحدة الايمان كان سر قوة الجامعة كما كان فيه سر ضعفها . إذ جعل الجامعة عادة فى صف السلطان وان هى لم تعدم التفكير الجرىء : عاونها على هذا ما اتخذته من منهج الحوار والمناظرة فى تكوين الطلاب وشحذ أذهانهم وألسنتهم وموجز القول أن جامعة العصور الوسطى قد حرمت على نفسها الابتعاد عن المتون ؛ كما فرضت على نفسها السعى لتحقيق غايات عملية محدودة . وبينما هى واثقة كل الوثوق بصحة ماتقرر إذ هى كثيرة الجدل واللجاج ، وقد أهملت تربية الذوق السليم وقيدت الخيال . ولكنها وفت بحاجات العصر وحفظت فى دراساتها القانونية وفى فلسفة اكريناس ومدرسته تراثاً ثميناً للانسانية

وقد زاد عدد ماأنشىء من الجامعات فى ممالك أوربا الغربية على الثمانين . منها مالم يعمر طويلا ومنها ماظل قائما حتى الآن كباريس ومونبلييه فى فرنسا وبولونيا وبادوا بايطاليا واكسفورد وكامبردج بانجلترا وفينا بالنمسا وليبزج بألمانيا

وسالامانكا بأسبانيا ولوفان ببلجيكا وكراكوف ببولونيا ويراج أو براها ببلاد التشك (بوهيميا) وغيرها . ولكن هذه الجامعات آثرت إغفال مجاراة التطور الفكرى فى العصور التالية للنهضة الاوربية بل قاومته أحيانا بالقدر الذى تستطيع فوقفت موقفا عـــدائيا من فلسفة ديكارت ولم تفسح مجالا للحركة العلمية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فنمت هذه الحركة مستقلة عن الجامعات . ووصلت أوربا لنهاية القرن الثامن عشر : لعصر الثورة الزمنية والثورة الاقتصادية والجامعات جامدة فى مكانها ولكن العاصفة مالبثت حتى هزمتها أما فى فرنسا فانها عصفت بها وأحلت مكانها حتى قرب نهاية القرن التاسع عشر المدارس العالية والكليات (الصورة الأخرى لتنظيم التعليم العالى) مجتمعة وقتا مافى جامعة واحدة وأما فى نجلترا فانها أيقظتها وأقامت بجانبها جامعات حديثة فوصلت انجلترا بذلك — كما يفعل الانجليز — حاضرها بماضيها . ولم يكن قضاء رجال الثورة الفرنسية على جامعات

فرنسا الاثنتين والعشرين كرها منهم للتعليم العالى وإنما كان يأسا من امكان اصلاح الجامعات وتمشيا مع فكرة أساسية من أفكار الثورة هى ألا تعرف الدولة الا أفراد الأمة فقط وأن تنعكس الوحدة القومية فى وحدة الدولة فلا مكان اذن للجماعات ولا مكان للجامعات وأقامت الثورة مكان الجامعات المدارس العالية .

ولم يرض نابليون بعد إذن عن تنظيم التعليم العالى على هذا النحو . فجمع معاهد التعليم على اختلاف أمكنتها ودرجاتها فيما سماه « جامعة فرنسا » وجامعة فرنسا كالأمبراطورية ، إذن وحدة غير قابلة للتجزئة والفكرة النابليونية فى تركيز التعليم على هذه الصورة واضحة ، هى ان تكون دولة الرعية على النمط الذى ترتديه ، ولا يجوز لأحد أن يعلم الا باذن الجامعة وتحت اشرافها ولا يجوز لمدرسة أن تنحرف عن البرنامج الذى ارتضته الدولة

بواسطة الجامعة للتعليم ، وفى حديث نابليون « لن يكون استقرار سياسى إلا بتحديد أغراض التعليم تحـــديداً لا شك فيه فحيث لا يعرف الناس إن كان التعليم يرمى الى أن يخلق منهم جمهورية أو ملوكيين ، نصارى أو كافرين لاتوجد جامعة جديرة بهذا الاسم». فلا مجال فى جامعة فرنسا لحرية الفكر ولا مجال للدراسات السياسية والاجتماعية ولم يرد منها نابليون الا خمراً يتمشى فى عقول المنوهين من الخطباء والبارعين من الكتاب وبسبب اختـــلال التفكير والتطلع لما لا يعنى الناس ولم ير فى الدراسة التاريخية التى لا تجرى كما يرسم الحاكم إلا وبالا ، ولم ير بأسا فى دراسة الرياضيات. أما الطب فلا بد منه ودراسة العلوم الطبيعية يجب تشجيعها لأقصى حد ممكن ، فالتفوق فيها يبنى للامبراطورية مجداً ، والكشف عن أسرار الطبيعة له ناحية تطبيقية تزيد فى الثروة والرفاهية .

وهذا شأن الديكتاتوريين والحكام بأمرهم والعسكريين إذ أنهم يريدون حقن الأمة فى وعاء واحد وهو تركيز السلطة المطلقة فى أيديهم واتخاذ التعليم بأنواعه أداة لهذا التركيز

وقد دامت هذه الجامعة الامبراطورية قانونا حتى سنة ١٨٥٠ . ولكن كان شأنها خاملا بالقياس للكليات المختلفة المنبثة فى أرجاء فرنسا والقائمة بالتعليم العالى للآداب والعلوم والقانون والطب، إلى أن تحولت فى سنة ١٨٩٦ الى الجامعات الفرنسية الحالية .

الجامعة والمدارس العامة

ولو كان الأمر متصورا على تحصيل علم معين ؛ أو إعداد الشبان ليكونوا أطباء أو مهندسين لما دعا الحال الى تحويل كليات فرنسا فى سنة ١٨٩٦ الى جامعات فهذه كانت تقوم بمهمتها قياما مرضيا . ولكن للجامعة مهمة تسمو على ذلك . إنها مجتمع له وجوده الخاص ، يحيا أعضاؤه حياة كاملة . يحصلون العلم معاً ويعبدون الله معاً ويلهون لهو الشباب معاً . وما الاجازات الجامعية الا قبول الفرد من الشبان قبولا نهائيا فى مجتمع الأمة . فليست إذن كما يفهمها العامة شهادة العتق ! وليست مما يجوز منحه لمن لم ينشأ فى ذلك المجتمع بل حضر

مادة الدروس وأدى فيها الامتحان .

والجامعة تبعد عن المدرسة العالية بعد اليادة هوميروس عن دائرة المعارف أو بعد لعبة من المكعبات عن خلية النحل ! ولا أدل على طبيعتها وعلى نوع رسالتها من كون المشرفين على التربية فى الروسيا البلشفية قد قللوا من خطر الجامعات وأكثروا من المدارس الفنية العالية ! فالتعليم الجامعى أقوى مقوم للشخصية المستقلة .

والدراسة الجامعية — مهما تفرعت — أشبه ما تكون بالنفس الانسانية : واحدة متعددة . ولكى تكون الجامعة كذلك ، لكى تؤدى رسالتها ، يجب أن تكون حرة وليست الحرية مقصورة على الاستقلال عن الحكومة كلا . فان التدخل الحكومى ربما كان أقل أعداء حرية الجامعة شأنا . انما المقصود التحرر من ضغط الجماعات

المختلفة والأفراد فهم هذا الانجليز تماما .فحرروا جامعاتهم القديمة والجديدة تحريراً تاما ، وعاونوا الجامعتين القديمتين على إصلاح شؤونهما بنفسيهما ، وتركوا أمر إنشاء الجامعات الجديدة للافراد والجماعات وعند ما التزمت الحكومة باعانة الجامعات ماليا لم تقتض ثمن ذلك خضوعاً .

وقد عرفت مصر التعليم الجامعى كما رسمته الحضارة الاسلامية دهراً طويلا كما أنها عرفت التعليم العالى المنظم فى المدارس الفنية العالية منذ النهضة المحمدية العلوية ولما أرادت استكمال أسباب الثقافة العالية الشاملة نهضت بانشاء الجامعة المصرية . وقد يبدو للناظر ابتعاد معاهد الدراسة العالية (الاسلامية والفنية العالية والجامعة الحديثة) بعضها عن البعض الآخر : ولكن هذا الاقصاء كان فى الواقع خارجيا فقط ، والثابت أن المعاهد المختلفة تبادلت

التأثير والنفوذ بطرق دقيقة خفية وظاهرة وعلى كل فلم يصب المصريين ذلك اللون الممقوت من ألوان الاستبداد الذى يأبى إلا أن يصب حياة الأمة الروحية فى قالب واحد وظلوا أحراراً يتجهون نحو ما يرتضون لأنفسهم من شتى المثل العليا وبقيت لهم ثقافة غنية بتباين أصولها وتنوع عناصرها .

وقد دفع إنشاء الجامعة المصرية الحكومة نحو التفكير فى تحويل معاهدها العالية الى جامعة فألفت لجنة درست الموضوع دراسة تفصيلية فى تقرير مطبوع . ثم قامت بتحقيق ذلك فى سنة ١٩٢٥ دون أن تنظر فى تقرير لجنة الجامعة ، وهذا مما يؤسف له ففى ذلك التقرير محاولة جديرة بالعناية نحو تنسيق الدراسات الجامعية على أساس مفهوم . كما أن فيه حلا جديراً بالنظر لتنظيم الوصل بين التعليم الجامعى وفيه أخيراً طريقة مرضية لتعيين مكان

الدراسات والدراسات البيداجوجية فى إعداد المعلم وهذه المسائل الثلاث من المسائل التى تواجه الباحثين الى الآن

والتعليم الجامعى فى مصر جديد قديم ، جديد من حيث سنة المولد ومن حيث أن بعض الدراسات وبعض مناهج البحث لم تعرفها بلادنا قبل ولادة الجامعة وقديم اذا اعتبرنا أثر العصور الخوالى فى المحيط الذى لا مفر للجامعة من أن تعيش فيه . ومن شروط الحياة الملاءمة بين الكائن وبين ما يعيش فيه . قلنا الملاءمة وهى لا تفيد الاستسلام وهى ليست سلبية .

وقد خلقت مصر الجامعة لتكون لها إماماً ولكنها لن تكون لمصر إماما إلا إن قبلت الأمة شروطاً أربعة وقبول الأمة لهذه الشروط أهم فى النهاية من قبول الطائفة من الناس تتولى الحكم زمناً ما .

أولها : تقدير حرية الجامعة حق قدرها بأن لا تحدد لها دائرة المعرفة وألا ترسم لها مناهج البحث . والتسليم للجامعة بهذه الحرية يستلزم أن يترك لها أمر تنظيمها وان تكون الحكم فى كل ما يتعلق بكيفية استعمال أعضائها من المعلمين والطلاب لهذا الحق .

وحق الحرية هذا يفيد أيضاً حق الجامعة المطلق فى تخير طلابها وأساتذتها وفى وضع ما تراه من المقاييس لتنظيم الاجازات الجامعة المطلق فى تخير طلابها وأساتذتها وفى وضع ما تراه من المقاييس لتنظيم الاجازات الجامعية ولا تعارض فى الحقيقة بين الاعتراف بحق الجامعة فى اختيار طلابها طبقاً لما تراه محققاً لأغراض التعليم الجامعى وبين حق المساواه المقرر لجميع المصريين ما دام اختيار الجامعة لا يجرى تبعاً للهوى أو لارضاء بعض الطوائف أو الأفراد وما دامت الجامعة تقوم من ناحيتها بمعاونة

الدولة الديموقراطية فى سعيها المستمر لازالة العقبات التى تعترض تحقيق فكرة المساواة .

أما ثانيها فهو كفالة الوسائل التى تعين الجامعة على تأدية رسالتها من ناحية تنقيف الشبان عقلا وروحاً وبدنا وأحياء تراث الانسانية وصونه ومتابعة البحث العلمى أما ثالثها فهو إشراف الجامعة على الطلبة وتعليمهم قبل الجامعة أما رابعها فهو كفالة العمل المناسب للخريجين .

التعليم الشعبى والجامعات الشعبية

لعل المدرسة الاسلامية التى نشأت فى صدر الاسلام مع نزول القرآن الكريم وإنشاء المساجد العديدة للصلاة والإستذكار والوعظ والإرشاد والإستفتاء ، هى المدرسة الشعبية الأولى التى عرفها العالم منذ يومئذ الى اليوم ؛ إن لم نقل العالم كله منذ أقدم العصور : ذلك أن التعليم ، يومئذ ، لم يكن مقيداً لا بزمان ولا بمكان ولا بشروط فحيثما وجد

أناس يصلون أو يصومون أو يتذاكرون راغبين فى المعرفة فى منزل أو مسجد أو سوق من الأسواق أو رحلة من رحلات القوافل أو غيرها . ووجد بينهم ، حافظ للقرآن أو فقيه فى علومه أو شاعر راوية . كان هناك مدرسة . أعنى مكانا للتدريس . فيه المدرس وهو فى الأغلب ، متطوع ، وطلبة هم هؤلاء المجتمعون للصلاة أو المحادثة أو المسامرة وقد يكون بينهم نساء لهذا الغرض ومن ثم كان الجامع الأزهر ، منذ نشأته الأولى . إلى أن حددت القوانين والنظم الأخيرة شروط الالتحاق به والدراسة فيه وعينت مناهجه وشهاداته ، جامعة شعبية . بمعنى أن الباب مفتوح لكل عربى مصريا أو غير مصرى شابا أو شيخا ، كفيفا أو مبصرا ، أيا كان زيه ، فقيراً أو غنيا ، ولو أمضى العمر كله فى الدراسة . له أن يغيب عن الدرس أو يحضر . وله أن يشتغل بمهنة تكفل له الغذاء

والكساء أو يأخذ كفاية من ذلك مما يجرى على الطلبة من ريع الأوقاف. كذلك كان بعض العلماء واغنياء يجعلون دورهم مكانا لحضور العلماء واستماع الطلبة اليهم

على أن الجامعات النظامية الحديثة قد نقلت إلى الشعب فى غير قيود الا ما تفرضه الضرورة تعليما شعبيا. وذلك فى ما أنشأت هذه الجامعات من أقسام للثقافة العامة يلتقى فيه أساتذة الجامعة وغيرهم محاضرات يحضرها مستمعون، بشروط يسيرة أو من غير شرط كما نشهده فى مصر من محاضرات قسم الخدمة العامة فى الجامعة الأمريكية فى القاهرة وكذلك ما أنشىء من دراسات المراسلة التى تيسر لطلاب المراسلة الذين يتلقون بالبريد دروسا ومحاضرات مطبوعة مقابل أجر قليل، وعقد امتحانات حددت شروطها وأوقاتها وعينت شهاداتها، أو من غير الامتحان والشهادة.

الجامعة الشعبية فى القاهرة

١٨ شارع قصر العينى

أصدر الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهورى باشا وزير المعارف يومئذ القرار الوزارى رقم ٦٥٤٥ بتاريخ ١٠ اكتوبر سنة ١٩٤٥ بانشاء جامعة شعبية بالقاهرة ، وقد أصدر بعدئذ القرار الوزارى رقم ٦٥٤٦ بتاريخ ١٠ اكتوبر سنة ١٩٤٥ بتكوين مجلس ادارة لهذه الجامعة فى ٢٢ يناير سنة ١٩٤٦ ، أصدر القرار الوزارى رقم ٦٦٥٩ جاء فى المادة الأولى أنه يعمل بالنظام الأساسى للجامعة الشعبية المرافق لهذا القرار . وفى المادة ٢ — يصدر باللائحة الداخلية للجامعة الشعبية وبمناهج الدراسة بها قرار من مجلس الادارة .

أغراض الجامعة الشعبية

نصت المادة الأولى على أن تقوم الجامعة الشعبية تقوم على تحقيق الأغراض الآتية . (١) تنظيم دراسات عقلية وفنية بقصد تكوين الشخصية وترقية الملكات ورفع المستوى الثقافى . (٢) العمل على نشر الثقافة العامة بين طبقات الشعب على أساس من الرغبة الشخصية دون اشتراط مؤهلات خاصة (٣) المساهمة فى إيقاظ الوعى القومى عن طريق العمل على رفع المستوى العام الفكرى والاجتماعى . (٤) العناية بنواحى النشاط الاجتماعى للطلبة المنتسبين للجامعة عن طريق تنظيم رحلات واقامة حفلات رياضية وترفيهية .

أما المادة الثانية فقد نصت الى أنه يراعى فى تنظيم الدراسات التى تقوم عليها الجامعة توفير العوامل التى تستثير الاستعدادات الكامنة والرغبة فى الرقى وفى المادة الثالثة أنه

لاتقتصر الدراسات فى الجامعة الشعبية على ماهو نظرى منها ، بل تشمل دراسات تثقيفية متصلة بالمهنة ، والمادة الرابعة تنص على أنه يجوز أن تنظم الجامعة دراسة ملائمة لفئات العمال وأعضاء المؤسسات الاجتماعية فى مراكزهم الخاصة بهم .

خطة الدراسة ومناهجها

أما المادة الخامسة — فقد نصت على أن الدراسة فى الجامعة تشمل المواد الآتية : (١) الثقافة السياسية ، القومية والدولية ، ، و (٢) الثقافة التاريخية ، و (٣) الثقافة الأدبية و (٤) الثقافة العلمية ، و (٥) الثقافة التجارية ، و (٦) الثقافة الزراعية ، و (٧) الثقافة الصناعية ، و (٨) الثقافة الاجتماعية و (٩) الثقافة الدينيـــة ، و (١٠) الثقافة الطبية والصحية و - ١١ - الثقافة النسوية ، و - ١٢ - الثقافة الفنية . ويكون لكل مادة من المواد المتقدمة شعب خاصة . ويجوز بقرار من

مجلس الادارة انشاء شعب أخرى لتدريس مواد غير ماتقدم

وفى المادة السادسة — يوضع لكل شعبة من هذه الشعب مناهج خاصة تختلف مستواها باختلاف المستوى الثقافى للطلاب المنتسبين لها . وفى المادة السابعة تنظم الدراسة فى مقر الجامعة ويجوز أن تؤدى فى أماكن صالحة لهذا الغرض ، وفى المادة الثامنة — تنظم الجامعة إلى جانب الشعب سلاسل من المحاضرات العامة يلقيها الممتازون فى فروع الثقافات المختلفة

أما شروط القبول : فقد نصت المادة التاسعة على أن يكون حق الانتساب للجامعة والاستماع لما يلقى فيها من دراسات ومحاضرات مباحا للجنسين على السواء . والمادة العاشرة — يشترط فى الطالب المنتسب ألا تقل سنه عن السادسة عشرة وأن يكون ملما بالقراءة والكتابة . والمادة الحادية عشرة — يكون رسم القيد عن كل شعبه مائتى مليم .

والمادة الثانيه عشرة — لايجوز للطالب أن ينتسب فى عام دراسى لأكثر من ثلاث شعب .

تنظيم العمل فى الشعب

وفى المادة الثالثة عشرة - يخصص لكل شعبة مشرف اخصائى يكون من اختصاصه الاشتراك مع ادارة الجامعة فى اختيار صلاحية المتقدمين للدراسة فى شعبته والاشراف على سير الدراسة فى مادته كما يشترك فى اعداد المناهج واختيار المحاضرين ويمنح المشرفون مكافأة يحددها وزير المعارف العمومية بناء على طلب مجلس ادارة الجامعة . وفى المادة الرابعة عشرة - يعلن عن الشعب التى يتم تنظيم العمل فيها ، وتبدأ الدراسة بها متى تقدم للالتحاق عدد مناسب

أوقات الدراسة

وفى المادة الخامسة عشرة - تكون مدة الدراسة فى الشعب ثمانية أشهر فى السنة . ويحدد موعد بدء الدراسة وانتهائها فى كل شعبة بقرار من مجلس ادارة الجامعة . وفى المادة السادسة عشرة - مدة المحاضرة خمسون دقيقة . وفى المادة السابعة عشرة - تكون الدراسة مسائية فى جميع أيام الاسبوع ماعدا أيام الجمع والاعياد الرسمية . كما يجوز تنظيم دراسات ومحاضرات نهارية للسيدات

وهناك أحكام عامة ،ورد ذكرها فى المادة الثامنة عشرة - التى نصت على أنه لاتمنح الجامعة اجازات علمية . وانما يجوز أن تعطى الطالب المنتظم فى دراسته شهادة تدل على متابعته للدراسة بانتظام وفى المادة التاسعة عشرة - يجوز للجامعة أن تمنح المتفوقين من الطلبة مكافآت مالية . أما المادة العشرون

فقد جوزت للجامعة أن تستعين فى نشر رسالتها الثقافية بالممتازين
من الطلبة المنتسبين لها وزير المعارف
(السنهورى)

هذا ويقوم التدريس فى الجامعة الشعبية، كبار رجال الجامعة والتعليم والطب والزراعة، منهم الوزراء ووكلاء الوزارات ومديرها الاستاذ أمين ابراهيم كحيل بك، ورئيس مجلس ادارتها الاستاذ أحمد أمين بك. ويتجه الرأى إلى تعميم الجامعات الشعبية فى الوجهين البحرى والقبلى، تبعا لحالة الميزانية. والاقبال على الجامعة الشعبية عظيم ومن طبقات الامة، صناعها وأعيانها وكبار موظفيها

الكتاب الثانى

الجامع الازهر

رأينا إتماما للكتاب الأول عن التعليم العربى والجامعى أن يعقبه هذا الكتاب الثانى عن الجامع الأزهر إذ كان ولا يزال أوضح دليل على تاريخ التعليم الاسلامى والعربى والنظام الجامعى .

أنشأ الجامع الأزهر جوهر القائد الكاتب الصقلى مولى الامام أبى تميم معد الخليفة أمير المؤمنين المعز لدين الله لما اختط القاهرة وكان الشروع فى بنائه لسبع بقين من جمادى الاولى سنة ٣٥٩ هـ — ٩٧٠ م وكمل البناء لتسع

خلون من رمضان سنة ٣٦١ هـ - ٩٧٢ م . وفى دائرة القبة التى فى الرواق الأول وهى على يمين المحراب والمنبر ما نصه بعد البسملة « مما أمر ببنائه عبد الله ووليه ابو تميم معد الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وابنائه الأكرمين على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى وذلك فى سنة ستين وثلمثمائة » وأول جمعة جمعت فيه فى شهر رمضان لسبع خلون منه سنة ٣٦٠ هـ (أنظر خط المقريزى ج ٢ »

وقد جـــدد الخلفاء والولاة والسلاطين والوزراء والأمراء وذوو الجاه الجامع ووسعوه كما جاء فى المقريزى فى خطط ج ٢ وعلى باشا مبارك ج ٤ والشيخ سليمان رصد فى كتابة كنز الجوهر صفحة ٢٢ وما بعدها وهؤلاء هم المجددون الموسعون ، تذكر أسماءهم كما يلى :

العزيز بالله أبو منصور نزار ابن المعز لدين الله .

الحاكم بأمر الله المستنصر . الحافظ لدين الله . الامير عز الدين أيدمر الحلى . الامير بيابك الخازندار فى سلطنة الظاهر بيبرس . الامير سلار علاء الدين طيبرس . القاضى نجم الدين محمد بن حسين الاسعردى . الامير علاء الدين اقبغا . الامير الطواشى سعد الدين بشير الجامدار الناصرى ، الظاهر برقوق ، الامير بدر الدين جنكل ابن البابا الامير تاج الدين الشوبكى الامير سودوب مقاضى . جوهر القنقبائى

وقال ابن أياس إن الخواجة مصطفى بن محمود بن رستم الرومى عمر الجامع سنة ٩٠٠ هـ وصرف عليه من ماله ١٥٠٠٠ دينار — وفى نزهة الناظرين تفصيل عن تجديد الازهر فى أيام الملك الاشرف ابى النصر قايتباى والملك الظاهر ابى سعيد قانصوه خال الناصر . والملك الاشرف قانصوه الغورى . والوالين العثمانيين الشريف

محمد باشا سنة ١٠٠٤ هـ والوزير حسن باشا سنة ١٠١٤ هـ

وقد ذكر الجبرتى عند كلامه على وفاة الاميرين اسماعيل بك المتوفى سنة ١١٣٦ هـ وعبد الرحمن كتخدا المتوفى سنة ١٣٩٠ هـ ما قاما به من تعمير الأزهر واقامة أعمدة الزمام والصريج والمطبخ وخزائن الكتب والمنارة وغيرها .

واهتم محمد على باشا بالأزهر اهتماما شديدا . وجدد فيه. كما حفه ابراهيم باشا برعايته. اما عباس باشا الاول فقد أولاه عنايته وكان يزور الأزهر وينثر القروش الفضية بعد خروجه منه . اما سعيد باشا فقد عمر الجامع عمارة حسنة . وجدد اسماعيل باشا باب الصعايدة الكبير مع مافوقه بأحسن مما كان . ولما علم توفيق باشا ان هناك خللا فى المقصورة القديمة أمر باصلاحها . وفى عهد الخديو عباس الثانى جددت بالأزهر تجديدات مهمة نذكر منها تجديد الرواق

العباسى والصحن وباب المزينين . وأبدى السلطان حسين كامل بالأزهر كل اهتمام وتمت على يديه اصلاحات عديدة ، وجدد الملك فؤاد الأول المبانى الأزهرية وزاد معاهده وسار جلالة الملك فاروق - حفظه الله - على نهج والده العظيم وأجداده العظام فى تجديد الأزهر وكلياته ويبلغ مساحة الأزهر الآن ١١٣٨٠ مترا مربعا

مشيخة الأزهر

حين أنشىء الأزهر لم يكن له شيخ الى القرن العاشر وانما كان يتولاه الملوك والأمراء وفى القرن الحادى عشر الهجرى جعل للأزهر شيخ ، ومما يجمل ذكره ان شيخ الأزهر كان بمثابة شيخ الاسلام فى دار الخلافة فكان يقوم بشئون الأزهر ويرعى أمور أهله ويفصل فى قضاياهم ويضبط مرتباتهم ويمثلهم لدى الحكومة ومنوط به اقامة شعائر الدين فى أنحاء القطر قاطبة أما أول من تولى المشيخة كما ذكر الجبرتى فهو الامام محمد ابن عبدالله الخرشى المالكى المتوفى سنة ١١٠١ هـ وبعده الشيخ

محمد النشرتى المتوفى سنة ١١٢٠ هـ وبعده الشيخ عبد الباقى المالكى القليني فلما مات خلفه الشيخ محمد شنن المالكى المتوفى سنة ١١٣٣ هـ .ثم الشيخ ابراهيم بن موسى الفيومى المالكى المتوفى سنة ١١٣٣ هـ . ثم الشيخ ابراهيم الشبراوى الشافعى وتوفى سنة ١١٧١ هـ وبعده الشيخ الحفنى المتوفى سنة ١١٨١ هـ ثم الشيخ عبد الرؤوف السجينى وتوفى سنة ١١٨٢ هـ ثم الشيخ أحمد الدمنهورى المذاهبى وتوفى بمنزله ببولاق سنة ١١٩٢ هـ . وبعد وفاته حصل نزاع فى تولى المشيخة بين الشيخين عبد الرحمن ابن عمرو العريشى الحنفى وأحمد العروسى الشافعى مدة سبعة أشهر ثم آلت إلى الثانى وتوفى سنة ١٢٠٨ هـ فانتقلت المشيخة للشيخ عبد الله الشهير بالشرقاوى وهو الذى أنشأ رواق الشراقوة . وقد دخل الفرنسيون مصر فى أيامه وانتخبوه عضوا فى الديوانين العمومى والخصوصى (أنظر الجبرتى ج ٢ وتاريخ مصر الحديث لجورجى زيدان وفتح مصر الحديث لأحمد حافظ عوض) . وتوفى الشيخ الشرقاوى

سنة ١٢٢٧ . وخلفه الشيخ محمد الشنوانى الشافعى وتوفى سنة ١٢٣٣ هـ ثم تقلد المشيخة السيد محمد ابن الشيخ أحمد العروسى سنة ١٢٤٥ هـ وجاء بعده الشيخ أحمد الدمهوجى الشافعى وتوفى ليلة عيد الأضحى سنة ١٢٤٦ هـ بعد أن مكث ستة شهور فانتقلت المشيخة إلى الشيخ حسن ابن محمد العطار فأقام شيخا حتى مات سنة ١٢٥٠ هـ . وكان أبوه عطارا . وكان محمد على باشا يجل الشيخ العطار ويعظمه . وبهذه المناسبة نذكر أن محمد على باشا كان يحترم العلماء ويعمل بمشورتهم وقد سار أولاده وأحفاده على هذا الرأى الصائب وتقلد المشيخة بعد الشيخ العطار البرهان الشيخ حسن القويسنى وكان مع انكفاف بصره مهيب الجانب لايقبل الهدايا واعتراه الجذب فى آخر عمره سنة ١٢٥٤ هـ ثم تقلد المشيخة بعده الشيخ أحمد بن عبدالجواد الشهير بالصائم الشافعى الصفتى واستمر فى الرياسة إلى سنة ١٢٦٣ . وتولى المشيخة بعده الشيخ ابراهيم البيجورى واعتمر فى التدريس مع القيام بشئون المشيخة

وكان المرحوم عباس باشا الأول يزوره فى درسه بالأزهر فلا يقوم الشيخ له بل يهيء له كرسيا من جريد يجلس عليه خارج الدرس — ولما كبر سن الشيخ حصلت حوادث أوجبت اقامة أربعة وكلاء عنه للقيام بواجبات الوظيفة تحت رياسة الشيخ العروسى فانتخب الشيخ أحمد كبوه العدوى والشيخ اسماعيل الحلبى والشيخ خليفة الفشنى والشيخ مصطفى الصاوى واستمر الجميع قائمين مقام الشيخ البيجورى الى أن توفى سنة ١٢٧٧ هـ . وبقى الأزهر بلا شيخ بوكالة الأربعة الى سنة ١٢٨١ هـ . ثم تقلد المشيخة مصطفى العروسى وعزم على امتحان المدرسين لولا أن عزل سنة ١٢٨٧ . فتقلد المشيخة الشيخ محمد المهدى العباسى الحنفى مفتى الديار وهو أول من تقلد المشيخة من العلماء الحنفية وقد سن امتحان التدريس للعلماء بعد أن استأذن الخديوى فى ذلك . وقد تولى المشيخة سنة ١٢٨٧ هـ . ثم انصرف عنها وعن الافتاء ورجع اليهما مرتين وتوفى ليلة الأربعاء ١٣ رجب سنة ١٣١٤ هـ . ومن مؤلفاته الفتاوى المهدية الشهيرة — وقد

تولى الشيخ محمد الامبابى الشافعى مشيخة الازهر فى المرة الأولى سنة ١٢٩٩ هـ . وانصرف فى آخرها ثم تولاها للمرة الثانية سنة ١٣٠٤ هـ . واستمر فيها الى سنة ١٣١٢ هـ . إذ امرض فتعين الشيخ حسونه النواوى وكيلا عنـــه . ثم استعفى الشيخ الامبابى وتوفى سنة ١٣١٣ هـ .

ومما يجدر ذكره ان مجلس ادارة الازهر قد أنشىء بأمر عال فى ٧ رجب سنة ١٣١٢ هـ . وكان المجلس يتشكل من خمسة عدا رئيسهم شيخ الجامع وهم المشايخ محمد عبده المفتى وعبد الكريم سليمان عضو المحكمة الكبرى بمصر وسليمان العبد أحد علماء الشافعية ومحمد أبو الفضل الجيزاوى أحد علماء المالكية والسيد أحمـــد الحنبلى شيخ رواق الحنابلة .

ولما توفى الشيخ الامبابى تولى المشيخة الشيخ حسونة

The adm. Council
1905
Delaware

النواوى فى ٢ محرم سنة ١٣١٣ هـ . — ٢٥ يونيه سنة ١٨٩٥ م . بأمر الخديوى وأصبح الشيخ رئيساً لمجلس ادارة الأزهر ثم انضمت اليه وظيفة الافتاء سنة ١٣١٥ هـ بعد وفاة الشيخ المهدى وبعد أن قام وكيلا عنه مدة . وهو ثانى من جمع بين الافتاء والمشيخة من الحنفية . ثم انصرف عن المشيخة والافتاء سنة ١٣١٧ هـ . فتولى المشيخة الشيخ عبد الرحمن القطب الحنفى النواوى فى ٢٤ محرم سنة ١٣١٧ هـ — ٣ يونيه سنة ١٨٩٩ م . وتوفى بعد شهر واحد فردت المشيخة الى أصلها السادة المالكية فتقلدها الشيخ سليم مطر البشرى فى ٢٨ صفر سنة ١٣١٧ هـ الموافق ٦ ابريل ١٨٩٩ .

وتعين بعده الشيخ السيد على البلاوى فى ٢ ذى الحجة سنة ١٣٢٠ هـ - اول مارس سنة ١٩٠٣ م . ثم استقال فى ٩ محرم سنة ١٣٢٣ هـ - ١٥ مارس سنة ١٩٠٥ م وخلفه

الشيخ عبد الرحمن الشربيني في ١٣ محرم سنة ١٣٢٣ هـ — ١٩ مارس سنة ١٩٠٥ م ثم تولى المشيخة بعده الشيخ حسونه النواوي في يوم ١٦ ذي الحجة سنة ١٣٢٤ هـ — ٣٠ يناير سنة ١٩٠٧ م وجاء بعده الشيخ سليم لثاني مرة وتعين في ١٢ ربيع الاول سنة ١٣٢٧ هـ — ١٣ ابريل سنة ١٩٠٩ ثم تولى المشيخة الشيخ محمد أبو الفضل الجزاوي في ٦ محرم سنة ١٣٣٨ هـ — اول إكتوبر سنة ١٩١٩ م . وتوفي وهو في المشيخة في ١٤ مايو سنة ١٩١٧ بعد أن عمر ٩٥ سنة وتعين بعده الشيخ محمد مصطفى المراغي في ١ ذي الحجة سنة ١٣٤٦ هـ — ١١ مايو سنة ١٩١٨ م واستمر في المشيخة حتى استقال فصدر الأمر الملكي نمرة ٦٨ في سنة ١٩١٩ م بتعيين الشيخ محمد الاحمدي الظواهري شيخ معـ[illegible]لنطا شيخاً للأزهر اعتباراً من ٧ جمادى الأولى

الاولى سنة ١٣٤٨ هـ - ١٠ أكتوبر سنة ١٩٢٩ م . الى سنة ١٩٤٤ فخلفه المغفور له الشيخ محمد مصطفى المراغى للمرة الثانية الى أن توفى فى ١٩٤٥ وخلفه حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق

ويقول القائمقام حسين شفيق بك إنه لما بنى عمرو بن العاص مسجده المعروف اتخذه جماعة من الصحابه مركزاً علميا وظل التدريس فيه مدة طويلة واقتفى أثره فى ذلك جامع أحمد ابن طولون فلما بنى الجامع الأزهر آلت اليه تلك الحركة الميمونه .

ولقد كان الازهر منذ نشأته موضع عنايه الخلفاء الفاطميين . ولكن فى أيام الايوبيين انتقلت حركة التعليم من الجامع الأزهر إلى المدارس التى أنشأها صلاح الدين الأيوبى وقام بالتدريس فيها كثير من العلماء إلى أن جاء الظاهر بيبرس البندقدارى سنة ٦٥٨ هـ . فأعاد إلى الأزهر حيا

العلمية بهمة الأمير عزالدين ايدمر الحلى . حتى اذا سقطت بغداد اتجهت انظار العالم الاسلامى إلى الأزهر وأصبحت مصر هى الكعبة التى ينشدها العلماء والطلاب من الاقطار قاطبة

أما أول من أقام الدرس فى الأزهر فهو العزيز بالله ابن المعز . وفى سلطنته بلغ الموجود فى الأزهر ٣٥ رجلا وذلك فى سنة ٣٧٨ هـ حتى اذا كانت سنة ٣٨٠ هـ ترتب المتصدرون لقراءة العلم . وازداد عدد رجال الأزهر إلى سنة ٨١٨ هـ فبلغ عددهم ٧٥٠ رجلا حتى كانت نهاية سنة ١٢٩٨ هـ فكان المجموع ٩٤٤٠ رجلا

وجاء فى احصائية عموم المدارس سنة ١٢٩٢ هـ انه كان بالأزهر من العلماء ٣٢٥ ومن الطلبة ١١٠٩٥ - وفى احصائية سنة ١٢٩٣ هـ كان عدد العلماء ٣٢٥ والطلبة ١٠٧٨٠ وفى سنة ١٣١٠ هـ : صار عدد العلماء ١٨٧ والطلبة ٨٢٥٩

حسين، عبد الله
التعليم العربي والجامعي
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01022281

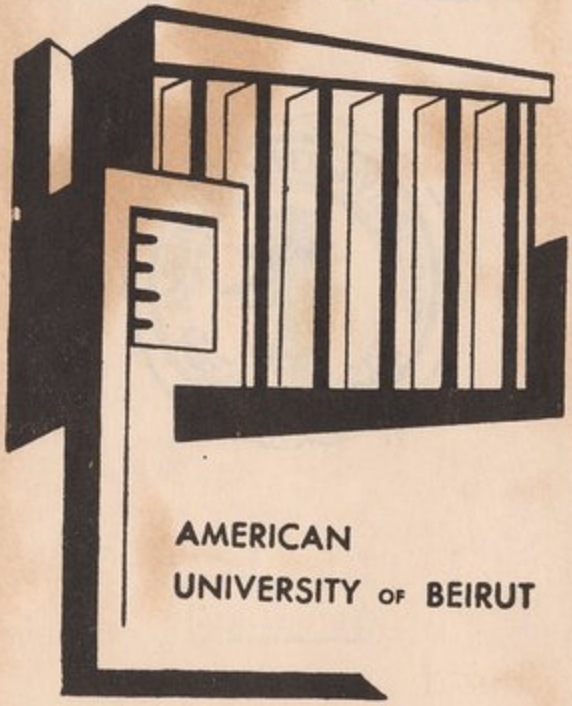

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT